الزعوانيا

الألف كتاب

مدخل إلى علم الآثار

تأليف

السير ليونارد وولي

ترجمه وعلق عليه وقدم له

الدكتور حسن الباشا

راجع الترجمة

الدكتور عبد المنعم ابو بكر

الألف كتاب

مدخل إلى علم الآثار

(٩٤)

باشراف ادارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

الألف كتاب (٩٤)

مدخل إلى علم الآثار

تأليف

السير ليونارد وولى

ترجمه وعلق عليه وقدم له
الدكتور حسن الباشا

راجع الترجمة
الدكتور عبد المنعم ابو بكر

مقدمة لعلم الآثار توضح كيف تطورت الحفائر الأثرية
من مجرد بحث عن الكنوز إلى علم من العلوم

الناشر
دار سعد مصر بالقاهرة
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة

هذه ترجمة لكتاب :

DIGGING UP THE PAST

تأليف :

Sir. Le nard Woolley

نشرته :

A Pelican Book

أشرف على ترجمة هذا الكتاب
قسم الترجمة بالإدارة العامة للثقافة
بوزارة التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم المترجم

يظن الكثيرون أن التنقيب عن الآثار هو مجرد الحفر الدائب المضنى فى سبيل الحصول على آثار ثمينة أو تحف جميلة تدر على مكتشفيها صيتاً وغنى . والحق إن الحفائر الأثرية كانت قبل نحو مائة من السنين تهدف إلى البحث عن الكنوز ؛ غير أن علم الآثار بمدلوله الحديث يختلف عن ذلك اختلافا بيناً : فهو يتلخص فى أمرين يرتبط كل منهما بالآخر كل الارتباط ؛ وأولهما أعمال الحفر والتنقيب ، واستخلاص الآثار ، وتسجيل أوصافها وأوضاعها بالنسبة لغيرها ، والمحافظة عليها وترميمها ؛ وثانيهما استخدام هذه الآثار المكتشفة فى إلقاء أضواء جديدة على الحضارة الإنسانية الماضية وتطورها ، واستنباط التاريخ منها .

ولا شك أن كثيراً من التحف الجميلة الثمينة المعروضة فى المتاحف إنما تدين بحفظها بل بوجودها كلية إلى التقدم الرائع الذى أحرزه علم الآثار الحديث فى أعمال التنقيب والترميم . كما أن هذا العلم قد ساهم مساهمة فعالة فى إحياء تواريخ أمم مجهولة وحضارات قديمة وتجارب

إنسانية لولاه لما عرف عنها إلا النذر اليسير.

وإن من يقرأ كتاب «التنقيب عن الماضى»[1] أو «مدخل إلى علم الآثار» الذى قمنا بترجمته سوف يلم إلماما كبيراً بعلم الآثار بشطريه؛ ويحيط إحاطة لابأس بها بأساليبه وأهدافه، ويمكنه أن يتتبع عن كثب الخطوات التى يقطعها عالم الآثار فى التنقيب والاستنباط، وأن يلاحظ المراحل المختلفة التى يمر بها أثر من الآثار كان قد تحلل إلى ذرات حتى يصير تحفة جميلة، وأن يشاهد بعث المواقع المهجورة وقبور الموتى إلى مدن عامرة تضطرب بالحركة والحياة.

وللكتاب مزايا مختلفة أخصها وضوح الأسلوب وبراعة العرض فهو فى الواقع مؤسس على سلسلة من الأحاديث ألقيت من محطة الإذاعة البريطانية. وفضلا عن ذلك فإنه يعرض التجارب الأثرية الشخصية لمؤلفه فى حفائر العراق ومصر وسوريا وبلاد النوبة والسودان وانجلترا وغيرها. ومن ثم فإنه يغلب عليه ذلك الطابع الشخصى الذى يضفى على الإنتاج الأدبى عنصر الجدة والحيوية والصدق. فالمؤلف حين يتكلم إنما يقص علينا ذكرياته الأثرية، ويذكر لنا المشاكل المختلفة التى جابهته فى أعمال الحفائر، ويسرد بتفصيل ودقة كيفية تناوله لها أثناء التنقيب. وهو فى الوقت نفسه

---

(١) Woolley (sir Leonard), Digging up the Past.

لايحرمنا من ذكر أهم الاكتشافات الأثرية العالمية كاكتشاف مدينة طرواده وپومپي وقصور كنوسس ومسينا والمقبرة الملكية فى أور وقبر توت عنخ آمون وغيرها . والكتاب فوق ذلك ممتع إلى أقصى حدود الإمتاع ؛ ففضلا عن قيمته العلمية وأسلوبه الفريد وأحداثه الاستكشافية المثيرة فإن وصفه لعمليات استخلاص الآثار ، وترميمها ، وإعادتها إلى حالتها الأصلية ، ثم الربط بينها وبين أصحابها الأقدمين وبعث الماضى حياً أمام أعيننا فى غاية الروعة والبراعة . وإن من يقرأ الكتاب يؤخذ بالأساليب المختلفة التى ينتهجها علماء الآثار فى التنقيب عن الآثار واستخراجها وفى محاولة تأريخها ، ثم فى الإفادة فى كشف الماضى وكتابة التاريخ وتوضيح مجرى الحضارة الإنسانية وتطورها عن طريق دراسة النذر اليسير من آثار أصحابها الذين عفى عليهم الزمن .

والسير ليونارد وولى[١] ، مؤلف هذا الكتاب ، قد تلقى تدريبه الجامعى فى نيوكولج بأكسفورد [٢] ، ثم صار أميناً مساعداً فى متحف الاشموليان[٣] وبعد ذلك صحب بعثة إكلى كوكس إلى بلاد[٤] النوبة من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١١ ، كما أسند إليه الإشراف

---

(١) Sir Leonard Woolley

(٢) New College, Oxford

(٣) Ashmolean Museum

(٤) The Eckley B. Coxe Expedition

على حفائر المتحف البريطانى فى قرقميش فى شمال سوريا إلى سنة ١٩١٤ وفى خلال الحرب العالمية الأولى انضم إلى مكتب المخابرات البريطانى فى مصر ومُنح وسام صليب الحرب[١] ، وأمضى سنتين سجيناً فى تركيا إلى أن انتهت الحرب . ومن سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٣٤ تولى الإشراف على أعمال الحفائر فى أور فى جنوب بلاد العراق لحساب المتحف البريطانى ومتحف جامعة بنسلفانيا[٢] . وفى سنة ١٩٣٥ بدأ بعض الحفائر بالقرب من إنطاكية على أمل العثـــور على مايوضح الصلات بين حضارة بلاد اليونان وبلاد الشرق ولاسيما البحث فيما إذا كان هناك صلة بين حضارة كريت أقدم الحضارات الأوربية وبين المراكز الحضارية القديمة مثل المراكز العراقية والحيثية . ومنذ سنة ١٩٣٩ عمل بقلم المخابرات البريطانى . ومنذ سنة ١٩٤٣ عين مستشاراً أثرياً لوزارة الحربية وكان مسئولا عن وقاية الآثار والتحف الفنية فى المناطق الحربية .

وللمؤلف كتب أثرية عديدة[٣] . ولقد منحته ترينتى كولج فى

---

(١) Croix de Guerre

(٢) The Museum of the University of pennsylvania .

(٣) نذكر منها على سبيل المثال المؤلفات الآتية :

Ur Excavations 5 vols 1934 - 1939,

The Development of Sumerian Art. London 1935

Ur of the Chaldees. A Pelican Book 1950.

Ur : The First Phases. A Penguin Book. =

دبلن[١] درجة الدكتوراه الفخرية فى آداب اللغة[٢] ، ومنحته جامعة سانت أندروز[٣] درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون[٤] . وهو زميل المعهد الملكى للمهندسين البريطانيين[٥] ، وحائز وسام هكسلى[٦] لسنة ١٩٤٢ .

وبعد ، فقد اخترت هذا الكتاب وقمت بترجمته لمشروع الألف كتاب الذى تتبناه مراقبة الثقافة بوزارة التربية والتعليم كفرع من أفرع النهضة العلمية التى تضطلع بها حكومة جمهورية مصر فى العهد الجديد . وحرصت أن تكون الترجمة سلسة واضحة حتى يفيد منها القارىء العادى إلى جانب الطالب الدارس ، ومع هذا التزمت الترجمة الحرفية بقـــدر الإمكان رغبة منى فى أن أنقل إلى القارىء العربى أسلوب المؤلف وروحه فضلا عن علمه وأفكاره . كما زوّدت الترجمة بكثير من التعليقات لتوضيح ماقد يغمض فهمه وللإشارة إلى ماتحسن

=A Forgotten Kingdom. A Pelican Book 1953.
Ur of the Chaldees, (Spadework : Adventures in Archaeology. London 1953).

(١) Trinity College, Dublin
(٢) D. Litt .
(٣) University of St. Andrews
(٤) **L L. D.**
(٥) **A. R. I. B. A.**
(٦) Huxley Medallist

معرفته ولاسيما مايتعلق بالشخصيات المهمة والتحف الفنية والشعوب التاريخية والتحركات الجنسية والمدن القديمة والتقاليد والعادات الماضية ، مما يسهل قراءة الترجمة من غير الرجوع إلى مصادر أخرى .

ولا يفوتنى أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر أستاذ الآثار المصرية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة على مابذله من جهد فى مراجعة الترجمة ، وعلى التوجيهات القيمة التى تفضل بها .

وأخيراً أرجو أن يعطى هذا الكتاب للمصريين والعرب فكرة واضحة عن علم الآثار ، وأن يوضح لهم الفائدة التى تعود عليهم من دراسته ، وأن يكشف لهم الغطاء عن المتع التى يمكنهم أن ينالوها من ممارسته ولو على سبيل الهواية . كما أرجو أن يكون باعثاً على النهضة الأثرية وفاتحة عهد عناية شعبية بالآثار بعامة وبآثارنا الخالدة بخاصة .

حسن الباشا
مدرس بقسم الآثار
كلية الآداب . جامعة القاهرة

يوليو ١٩٥٦

الفصل الأول

مقـــدمة

ربما كان من الأجدر أن أقدم بالإشارة إلى أهداف التنقيب عن الآثار قبل الخوض فى وصف وسائله وأساليبه. ويجب ألا نعتقد أن كشف الآثار هو فى حد ذاته غاية علمية، فعلى الرغم من أن اكتشاف كنز مدفون يصحبه دائماً ضجة وتطلع فإن اهتمام الجمهور المتزايد بأعمال الآثار لا ينحصر بأية حال فى حوادثها المثيرة بل إن وراء القصة المجردة شيئاً ذا قيمة حقيقية دائمة.

ومن المتعذر فى أول الأمر أن نحكم على بعض الاكتشافات بالنسبة إلى قيمتها الحقيقية، ومن أمثلة ذلك اكتشاف قبر «توت عنخ آمون» (١) وقبر «مينوس» (٢) فى كريت والمقابر

---

(١) قبر توت عنخ أمون فى وادى الملوك بمدينة طيبة القديمة فى مصر العليا. وتوت عنخ آمون أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة فى مصر القديمة.

(٢) مينوس اسم خرافى يطلق على أول ملوك كريت. وإليه تنسب الحضارة المينوية التى انتشرت فى جزر بحرايجه وبخاصة كريت وظهر صداها فى شبه جزيرة المورة ولاسيما مسيناوتيرنس. وقد بلغت شأواً بعيداً من الرقى والجمال ووصلت أوجها فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد وتنسب هذه الحضارة إلى الآخيين وهم أحد أجناس البحر الأبيض المتوسط.

الملكية فى «أور» [١]، إذ أنها لجدتها تخرج من وضعها الطبيعى وتبهر الأبصار، ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن تنسحب إلى مكانها الملائم لاتصالها بغيرها من الأشياء التى وضحت قيمها الطبيعية فتصبح من المعالم التاريخية ومن ثم تبدأ مهمتنا معها رضينا أم لم نرض. وحينما عثر شليمان [٢] على كنوز مسينا فى بلاد اليونان فإن ما أثار العالم فى أول الأمر هو اعتقاده أن قصائد هومر قد ثبتت صحتها حرفياً. وقد يتناقش الآن قليل من الناس فيما إذا كانت جثتا أجاممنون وكليتمنسترا [٣] ترقدان فى تلك القبور مقنعتين بالذهب

---

(١) «أور» مدينة قديمة فى جنوب العراق وترجع نشأتها إلى الألف الرابع قبل الميلاد وربما إلى ماقبل ذلك. وينسب إليها إبراهيم الخليل الذى كان يعيش فى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. وموقعها الآن تل المقير.

وقد كشفت فيها حديثا المقبرة الملكية، وهى ترجع إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، وقد أطلق عليها اسم المقبرة الملكية لأنه عثر بين الجثث بها على جثتين يعتقد أنهما لملك وملكة ولو أن اسماءهما لم تكن يحليها أية ألقاب ملكية.

(٢) Heinrich Schliemann شليمان (١٨٢٢ — ١٨٩٠ م.) ألماني الجنسية، كان تاجر صباغة، وقد أغرم منذ صباه بملاحم هومر: الإلياذه والأودسا (انظر ص ١٣ هـ ١) وتملكته رغبة ملحة فى تحقيقهما: فقام بحفائر فى طروادة بآسيا الصغرى وفى تيرنس ومسينا ببلاد اليونان أدت إلى اكتشافات رائعة أفادت فى التعرف على حضارة سابقة على الحضارة الإغريقية. (أنظر ص ١١ هـ ٢)

(٣) Agamemnon أجاممنون قائد الجيوش اليونانية التى تتحدث عنها الإلياذة (أنظر ص ١٢ هـ ٢، ص ١٣ هـ ١).

و clytemnestra كليتمنسترا زوجة أجاممنون

أم لا ، غير أنه لايفكر أحد منهم فى هومر[1] أو فى بداية التاريخ الإغريقى من غير أن يتخيل صورة عن الآلهة والجمال المسينى .

ولا يزال علم الطبيعة يكشف أمامنا فى هذه الأيام منظراً كان يبدو لأجدادنا فى أول الأمر نوعاً من الكفر : فهو بالنسبة لهم يحطم أسس العقيدة وبالنسبة لنا يؤسس الفكر على قاعدة أوسع وأكثر منطقية . فالعلم يقدر الزمن بملايين السنين وعنده تمتد المسافات إلى مالا نهاية له ، ولكن هذا الخضم الواسع لايقلل من اهتمامنا بأمور اليوم والغد ، بل ربما لايؤثر بالمرة فى تصرفاتنا ، إلا أنه موجود ، وجزء من شعورنا ، وكلما اتسعت الكشوف كلما تحسنت قدرتنا على فهمنا لأنفسنا . ويعمل علم الآثار نفس الشيء ولكن فى محيط أصغر . فهو يبحث فى عصر محدد لايزيد عن عدة آلاف من السنين وليس من شأنه أن يدرس العالم أو حتى الجنس البشرى بل إن موضوعه هو الإنسان الحديث . إذ أننا عندما نحفر نتحدث عن هذه الأوانى والقدور وهذه الخرازات والأسلحة على أنها ترجع إلى ٣٠٠٠ سنة أو ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، فيراها الناس ويتعجبون من قدمها ، ويظهرون دهشتهم لا لشيء سوى لأنها عتيقة فى حين أن أهميتها الحقيقية هى فى حداثتها . فإذا كان مجرد العمر هو المقياس فإن كل مايكشفه التنقيب يصبح لاقيمة له إذا قورن

---

(١) Homer هومر شاعر يوناني عاش ـ حسب رواية هيرودوت المؤرخ اليوناني المشهور ـ فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، وتنسب إليه الملحمتان المعروفتان : الإلياذه والأودسا . (انظر الهامشين السابقين) .

ببيضة الديناصور الحفرية ، وما قيمة ستة آلاف سنة فى حياة الجنس البشرى حينما نضطر إلى حسابها بالنسبة إلى الازمنة الجيولوجية ؟ ألا إن أهمية هذه القطع الأثرية هى فى أنها تلقى ضوءاً على تاريخ رجال مثلنا تماماً ، وعلى حضارة متصلة بحضارتنا الحالية .

وليس فى استطاعتنا أن نتخلص من ماضينا ، إذ أننا نحس دائماً بأحداثنا التى مضت حتى حينما نسخر منها كما أننا نترك التجارب تشكل آراءنا وأعمالنا : وإذا لم يكن هذا هو حالنا فإن تطورنا الحضرى يجمد تماماً كما حدث لرجل الغاب فى استراليا الذى انعدمت عنده التقاليد أو تبلورت فى عرف غير معقول . ولكن الماضى الذى نرنو إليه يجب أن يكون إلى حد ما ماضينا نحن بأحداثه التى تمت على أيدى رجال كانت ظروفهم تشبه كثيراً ظروفنا ، وبتجاربه التى قامت بها أجناس أو أفراد يماثلوننا من حيث الأخلاق والتفكير ، وهكذا تصبح قيمها ذات صفة مستمرة هى التى نرتبط بها . ولقد كان المفكر السياسى منذ مائة من السنين يذكر مقارناته ويستمد حججه من العالم الرومانى أو الإغريقى وذلك لأنه كان يجده مشابهاً لعالمه غير أنه لم يكن ينفذ ببصره إلى ماوراء ذلك إذ أن الحضارة الإغريقية كانت تتمثل له كشىء ولد نامياً نمواً كاملا من غير تاريخ وراءه ، ومن ثم كان لايسمح لنفسه إلا بالقليل من الملاحظة للتطور وأسبابه . أما اليوم فنحن نرى أن الرجل الحديث لم يبدأ سيرته فى سنة ٥٠٠ ق . م . بل ولم يبدأها أيضاً فى ٥٠٠٠ ق . م . ، إذ فى استطاعتنا أن نتتبع عصر ازدهار حضارة

أثينا إلى الوراء وأن نجد جذورها تمتد امتداداً بعيداً وترسل براعم نامية يختلف بعضها عن بعض بحسب طبيعة التربة ونوع العوامل التى تعرضت لها ولكنها جميعاً من سلالة واحدة ، وعلى ضوء مثل هذه المعرفة نستطيع أن نتحكم فى التطور الحالى والمستقبل وأن نوجهه .
ونخطىء إذا قلنا إن هذا النوع من المعرفة مقصور على المتخصص والباحث فى التاريخ . إذ أن الكشف عن العالم يؤثر فينا جميعاً ، ويصبح جزءاً من الميراث الثقافى العام ، ونحن ننصف إذا قلنا عن علم الآثار بأنه العلم الذى يهم كل إنسان ، ومرجع ذلك إلى أن هدفه المباشر ، خاصة إذا قارناه بالعلوم الطبيعية ، هو أن يأتى بمقدمات أبسط . فهو يبحث فى الإنسان الحديث وليس فى ذلك الكون الذى أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى معنويات ندركها بعقولنا بينما نعتبر مافيه من مادية من صنع البشر . فحينما نرى نظام الصرف الدقيق فى كنوسس[1] سرعان

(١) كنوسس إحدى المدن القديمة فى كريت ويعتقد أنها كانت عاصمة لامبراطورية سيطرت على كريت وغيرها من جزر بحر إيجة . وتعتبر حضارة كنوسس ثالثة الحضارات العظمى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط بعد مصر والعراق . وقد بدأت هذه الحضارة فى الألف الثالث قبل الميلاد . وبلغت أوجها فى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . وكل مانعرفه عنها مستمد من فنونها ، وذلك لأنه لم يتيسر حتى الآن فك رموز كتابتها ونقوشها القليلة . وإن كانت قد بذلت محاولات جدية فى بريطانيا فى السنين الأخيرة نحو قراءتها يرجى لها التوفيق . ويعتبر العصر المسينى على القارة نفسها مجرد ازدهار متأخر وتقليد فطرى لحضارة كنوسس فى كريت .

وقد كشفت بقايا قصر كنوسس على يد السير أرثر إيفانز Sir Arthur Evans ويرجح أنها ترجع إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد . وهو يفوق قصور مسيناوتيرنس ويدل على حضارة راقية متقدمة .

ما نحس أننا فى وطننا ؛ كما أن مواد التجميل فى قبر من القبور العتيقة تتراءى لنا كأنها حديثة قريبة إلى نفوسنا . والدهشة التى يعبر عنها الزائر لمتحف من المتاحف بخصوص قدم شىء من الأشياء المعروضة تتناسب تماماً مع اعترافه بأن هذا الشىء بعينه لايزال لازماً فى حياتنا الحديثة ، وهى دهشة من يرى أفقه يتسع فجأة ، وهكذا فإن فائدة علم الآثار أنه يمنح الإنسان قمماً كثيرة شاهقة الارتفاع سهلة الصعود .

دفعنى إلى كتابة ماسبق هو أننى بُلغت أن السؤال الأول الذى يحب القارىء أن يجاب عليه قد يكون « لماذا يحفر الإنسان ؟ » ، ولقد صدمنى هذا السؤال إذ من الواضح أن هدف علم الآثار هو اكتشاف مجرى الحضارة البشرية وتوضيحه وليس من شك فى أن ذلك هدف مهم . ولكن قد يعترض على ذلك بأن السؤال ينحصر على التخصيص فى أعمال الحفر والتنقيب وأن دراسة مجرى الحضارة هى من مهمة علم التاريخ : وإذا كان الأمر كذلك ، وكان المؤرخ يتخذ من مخلفات الماضى التى ينقب عنها عالم الآثار مادة له ، أليس من الممكن أن تستخرج تلك المادة بالحفر المصادف ؟ هل من مبرر لمن يدعى التخصص فى فرع من فروع العلم أن يعمل بإحكام دقيق ما كان فى استطاعة عامل من العمال أن يقوم به بتكاليف أقل كثيراً ؟ .

إذا كان ذلك هو ما يعنيه السؤال الذى قد يعنى أشياء كثيرة أخرى فإنه يفضح جهلا تاماً بماهية أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار .

والحفائر فى جوهرها تطبيق للطريقة العلميـة فى التنقيب عن الأشياء القديمة وتقوم على أساس أن القيمة التاريخية لشىء من الأشياء لاتعتمد على طبيعة الشىء نفسه بقدراعتمادها على متعلقاته التى لا يمكننا ملاحظتها إلا بفضل الحفائر العلمية وحدها . فالحفار الطارىء أو الناهب يهدفان إلى الحصول على أشياء ذات قيمة فنية أو تجارية ثم يقف اهتمامهما عند ذلك . أما العالم المنقب عن الآثار ، ففضلا عن استمتاعه بالعثور على الأشياء النادرة الجميلة ، لأنه بشرقبل كل شىء ، فإنه يريد أن يعرف كل شىء عنها ، ثم إنه فى جميع الحالات يفضل الحصول على المعرفة على الحصول على الأشياء ؛ ويعتمد الحفر فى حالته اعتماداً كبيراً على الملاحظة والتسجيل والتفسير . وهناك اختلاف كبير جداً بين غرض الباحث العلمى ووسائله وبين اللص ؛ وعلينا الآن أن نبحث إذا كان هناك اختلاف معادل فى قيمة العمل نفسه . ويعتبر هـذا الكتاب كله فى الواقع محاولة لشرح الوسائل التى يتخـذها العالم المنقب عن الآثار ولإثبات تأديتها للغرض المقصود ؛ وقد يفيد فى الوقت نفسه كمقدمة توضح كيف أن عظم القيمة التاريخية لشىء من الأشـياء تعتمد على معرفتنا للظروف التى وجد فيها .

وإذا فرضنا أن أحد الفلاحين أخرج من مكان ما تمثالا من الرخام أو حلية من الذهب فإنه يبيعها ، ثم تنتقل هذه التحفة من يد إلى يد وهـكذا إلى أن تنتقل من أحد تجار العاديات إلى متحف من المتاحف أو مجموعة من المجموعات الشخصية . وحينئذ لايعرف أحد أين وجدت

أو كيف عثر عليها ذلك لأنها تكون قد انفصلت عن متعلقاتها ، وليس في الإمكان أن يحكم عليها إلا بمقدار قيمتها الذاتية ؛ حقا إن قيمتها كتحفة فنية لم تتأثر ، ولكن ما أهميتها التاريخية ؟ يضطر المتخصصون في هذه الحال إلى أن يخمنوا وأن يرجعوها إلى قطر من الأقطار وعصر من العصور بفضل المعلومات التى حصلوا عليها ، وإذا فرض واتفقوا على ذلك فإنه من المفروض أن هذه التحفة سواء أكانت تمثالا أم كأسا توضح هذه المرحلة الخاصة المعروفة من الفن توضيحا أكبر ؛ إلا أنهم في معظم الأحيان لا يتفقون ، وهكذا تصبح هذه التحفة موضوع جدال بين العلماء ومصدر ارتباك للرجل العادى . أما إذا كان الشيء الذى عثر عليه إناء من الفخار مثلا لا يتصل إلى الفن بسبب فإنه بعد أن جرد من أى مغزى كان يمكن أن يجعله وثيقة تاريخية ، قد صار عديم القيمة بالمرة ؛ ومن جهة أخرى فإن التبليغ الخاطىء عن شىء مهم عثر عليه يجعله حجر عثرة فى سبيل العلم .

ومن أمثلة ذلك أن بعض العرب اكتشفوا مصادفة أثناء حفرهم فى خرائب كنيسة من الكنائس السورية كأسا من الفضة مزخرفة برسوم أشخاص بارزة يمكن التعرف على أن بعضهم يمثلون المسيح وتلامذته .

وقد انتقلت هذه الكأس إلى أمريكا خلال أيد مختلفة . فأعد لها لاتجار العاديات قصة تقول إنها اكتشفت فى انطاكية ، وتلامذة المسيح

سموا المسيحيين الأول فى انطاكيه ، وهكذا أكد للعالم أنها الكأس المقدسة أى الكأس الفعليه التى استعملت فى العشاء الأخير وأنها تحمل صوراً لتلامذة المسيح ، بل إنها معاصرة له ، وعلى الرغم من أن هذه الكأس كانت قد عثر عليها على مسافة تبعد عن انطاكيه بأكثر من مائة ميل ، وعلى الرغم من انها ، بالحكم عليها بأسلوبها ، لابد وأن تكون قد صنعت بعد المسيح بمالايقل عن ٣٠٠ سنة كان من المتعذر القضاء على خطأ كان قد اكتسب دعاية واكتنفته قصة مؤثرة . على أن الضرر الذى أصاب العلم فى هذه الحالة الخاصة قد قلل منه أن القصة كانت واضحة التزوير ، وكان من الواضح أنها تهدف إلى المصلحة ، وقد ينخدع بها كثير من الناس ، ولكن المتخصص لم يكن مرغما على التخلى عن معرفته التى حصل عليها من الأشياء المؤرخة العديدة المتصلة بفن القرون الأربعة المسيحية الأولى ، ولكن إذا كانت المعلومات الموثوق بها المتصلة بشىء من الأشياء ضئيلة ثم جرد هذا الشىء من ظروف اكتشافه فقد يعتبر شركا حتى للاخصائى نفسه . ويحضرنى بهذه المناسبة مثال : حدث أن اشترى تمثال لأسد من البرونز فى الصين ؛ فكان من المفروض أنه صينى ، ولكن بدا لأحد العلماء المعروفين أنه يشبه الآثار القليلة جدا المماثلة التى نملكها من الفن الحيثى[١] ، ودفعه

---

(١) نسبة إلى الحيثيين وموطنهم آسيا الصغرى فى الألف الثانى قبل الميلاد . وكانت لهم اتصالات عديدة بالعراق ومصر وبلاد الشام كما ورد ذكر الطرواديين الأخيين فى كتاباتهم . وقد دلت الاكتشافات الحديثة على أن عاصمة دولتهم كانت بوغازكوى فى شمال آسيا الصغرى .

هذا إلى أن يعلن أنه حيثى، ومن ثم جعله مقياسا للحكم على تحف فنية أخرى لم يكن من الممكن إنكار أصلها الحيثى. وهذا نقد شخصى مؤسس على معرفة جزئية غير كافية، ومن ثم يعتبر موضع لوم، ولكن لو كان ذكر أى شىء بخصوص ظروف العثور على الأسد، لكننا قد تخلصنا من كثير من الاختلاط فى تاريخ فن الشرق الأدنى.

ومن جهة أخرى قد يصبح شىء لا قيمة له فى ذاته وثيقة تاريخية ذات أهمية عظمى لا لشىء إلا لأن طريقة إخراجه وظروف اكتشافه قد لوحظت بعناية. ولقد ظلت الخرائب الحجرية العظيمة فى « زمبابوى » فى رودسيا[1] مدة طويلة لغزاً من الألغاز، وكانت تحيط بها أغرب الآراء — فمن قائل إنها قد بنيت على يد الفينيقيين، ومن قائل إنها كانت « الأوفير » الذى حصل منه سليمان على ذهبه، ومن قائل إنها كانت نقطة أمامية لمصر القديمة، ولو أن أية نظرية من هذه النظريات ثبتت صحتها لكان لا بد لنا أن نعيد النظر من جديد فى جميع آرائنا عن التاريخ القديم. إلا أن قطعة لاقيمة لها من الخزف الصينى عثر عليها فى أساس البناء خلال حفائر علمية منظمة باتقان وعناية أثبتت أن ما كان يسمى معبدا هو بناء يرجع إلى العصور الوسطى ولابد أن يكون من عمل الأفريقيين الوطنيين أنفسهم.

---

(١) فى جنوب أفريقيا.

ومن الواضح أن هذه الشقافة الصغيرة لم تكن بأية حال لتلفت نظر مغامر من المغامرين الذين لا هم لهم من التنقيب غير الربح ، وإن فعل فلن يوجه إليها أحد أى اهتمام ، وذلك لسبب واحد وهو أن وسائله ليست من النوع الذى يجعل اكتشافاته تقبل على أنها أدلة علمية ، أما وقد عثر عليها حيث وجدت ، فإنها لم تقض على التزوير فحسب ولكنها فتحت أيضاً فصلا جديداً فى التاريخ الأفريقى .

والبحث عن الكنوز قديم قدم الإنسان تقريباً ، أما علم الآثار فهو تطور حديث ، إلا أنه فى حياته القصيرة التى تبلغ حوالى ٧٠ سنة قد أتى بالعجائب وبفضل التنقيب صارت آلاف من السنين فى تاريخ الإنسان مألوفة لدينا الآن بعد أن كانت لا يعرف عنها شىء بالمرة منذ مائة سنة . ولكن ليس هذا كل شىء ، بل ربما لا يعتبر ذلك أهم ما فى الموضوع . فالتواريخ القديمة التى تعتمد أساساً على الوثائق المكتوبة كانت تنحصر بشكل كبير فى تلك الأحداث التى كانت يعتبرها الكتاب فى جميع العصور أحق بالتسجيل كالحروب والحوادث السياسية وسير الملوك بالإضافة إلى بعض الأضواء الجانبية التى كان يمكن التقاطها من آداب العصر . وقد يخرج المنقب كمية أكبر من الوثائق المكتوبة ولكنه فضلا عن ذلك يزيل الغشاء عن أشياء كثيرة توضح لنا فنون الماضى وصناعاته اليدوية بالإضافة إلى المعابد التى كان يتعبد فيها الناس والمنازل التى كانوا يسكنون فيها ، والظروف التى عاشوا فيها فهو يزودنا بمادة لتاريخ اجتماعى من نوع لم يكن من الممكن الحصول عليه من

قبل بأية حال . ومن أمثلة ذلك أنه قبل أن ينقب شليمان فى مسينا [١] والسير أرثر إيفانز فى كريت [٢] لم يكن يخطر على بال أحد أنه كانت هناك حضارة مينوية . وإلى يومنا هذا لم يعثر على كلمة مكتوبة واحدة تخبرنا عن هذه الحضارة ، ومع هذا يمكننا أن نتتبع نشأة القوة المينوية القديمة وسقوطها ويمكننا أن نرى من جديد بهاء قصر مينوس وأن نتخيل كيف كانت الحياة فيه وكذلك فى المنازل المزدحمة التى كان يعيش فيها الطبقات الدنيا من الشعب . كما أن تاريخ مصر كله قد كشف بواسطة علم الآثار وكشف بتفصيل مدهش، وأعتقد أننا نعرف عن الحياة العادية فى مصر فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أكثر مما نعرفه عنها فى انجلترا فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد . ونحن مدينون لمعول الحفار بمعلوماتنا عن السومريين [٣] والحيثيين [٤] ، وهما امبراطوريتان عظيمتان كانتا قد نسى مجرد وجودهما ، وبخصوص أقوام قدامى آخرين

---

(١) انظر ص ١٢ هـ ٢

(٢) انظر ص ١٥ هـ ١

(٣) السومريون جماعات غير سامية قد تنتسب إلى الجنس الآرى ؛ وقد قامت حضارتهم فى جنوب العراق ثم انتشرت فى معظم جهات العراق كما ثبت من الحفائر الحديثة فى المواقع المختلفة . ويرجع تاريخهم إلى الألف الرابع والثالث قبل الميلاد .

(٤) انظر ص ١٩ هـ ١

كالبابليين[١] والآشوريين[٢] كانت معلوماتنا عنهم قليلة شحيحة ولكن بفضل التنقيب فى المواقع المردومة أصبحنا نعرف عنهم كل شيء . وإنها لقائمة مشرفة تلك التى تعدد الأعمال العظيمة والتى امتدت فى أماكن عديدة ؟ ففى جميع أنحاء أوربا ؛ وفى وسط أمريكا وفى الصين وفى التركستان لا يزال التنقيب يكمل معلوماتنا ويضيف آفاقا جديدة إلى فكرتنا عن ماضى الإنسان ؛ وإلى أى شيء يرجع هذا كله ؟ لا إلى مجرد الحقيقة أن أشياء قديمة قد نبشت من الأرض ، ولكن إلى فضل إخراجها بطريقة علميـــة .

---

(١) البابليون جماعات سامية استطاعت بقيادة حمورابى ح سنة ٢١٠٠ ق . م . أن تؤسس لها امبراطورية فى بلاد العراق صارت عاصمتها مدينة بابل . وتعرف أسرة حمورابى باسم الأسرة الأولى فى بابل واستمرت سيادتها إلى ح سنة ١٦٠٠ ق . م . حين قضى عليها الحيثيون (أنظر ص ١٩ هـ ١) . وظلت بابل بعد ذلك عرضة لغزوات متتالية إلى أن تمكن « نبوبولصر » أن يؤسس فيها دولة مستقلة سنة ٦٢٥ ق . م . عرفت باسم الدولة البابلية الحديثة أو الأمبراطورية الكلدانية ، واستمرت قائمة إلى سنة ٥٣٨ ق . م . حين قضى عليها قورش مؤسس الدولة الأخمينية الفارسية .

(٢) الآشوريون كانوا يتكونون من جماعات سامية تقيم فى مدن أعلى الدجلة مثل آشور ونينوى ؛ ومنذ سنة ٢١٠٠ ق . م. ظهر فيها ملوك محاربون وقد تمكنوا من السيطرة على بابل سنة ١١٠٠ ق . م . تحت قيادة « تغلث فلاصر » الأول ؛ وظلت لآشور السيادة على بلاد العراق إلى سنة ٦١٢ حين خرب الميديون الفرس عاصمتهم نينوى وأخضعوا الدولة الآشورية لسلطانهم ؛ ولقد كان الآشوريون الورثة الحقيقيين للحضارة العراقية التى ازدهرت فى عهدهم واتصلت بغيرها من الحضارات نتيجة لحروبهم الواسعة .

وقبل أن أصف المنهج يحسن أن أشير إلى نقطة أخرى تنشأ من "السؤال السابق « لماذا يحفر الإنسان؟ » وأحياناً يضع الناس نبرة الصوت فى مكان مختلف فيسألون: لماذا يحفر الإنسان؟ لماذا نلجأ إلى استخدام المعول لتحقيق هذه النتائج الباهرة؟ كيف حدث أن ردمت الأشياء ومن الضرورى نبشها؟.

من الواضح أن هذا السؤال لا يتعلق بالقبور التى يستخرج منها علماء الآثار كثيراً من كنوزهم، وذلك لأن فى هذه الحالة وضعت الأشياء تحت الأرض عن قصد ثم تركت هناك؟ ولكن كيف تهبط المنازل والمدن تحت سطح الأرض؟ الواقع أنها ليست هى التى تهبط تحت سطح الأرض ولكن الأرض هى التى تعلو فوقها، وعلى الرغم من أن الناس لا يفطنون إلى هذه الحقيقة فلا تزال تحدث حولهم كل يوم. وهناك أمثلة كثيرة لذلك. ففى لندن، مثلا، كم عـــدد الدرج الذى يضطر الإنسان إلى نزوله ليدخل كنيسة المعبد [1]؟ ومع هذا فقد كانت هذه الكنيسة فى أول الأمر فى مستوى الأرض. وتقع أرصفـــة الفسيفساء فى اللونديثيم الرومانى [2] أسفل شوارع المدينة الحديثة على عمق يتراوح بين خمسة وعشرين قدما وثلاثين. وقد حصل نفس الشىء فى أى مكان كان قد سكن باستمرار. ففى العصور القديمة لم يكن يهتم

---

(١) The Temple Chucrh

(٢) Roman Londinium

كثيراً بنظافة الشوارع كما تفعل البلدية الآن ، فكان الشارع هو المأوى الطبيعى الذى تتراكم فيه النفايات ومن ثم كان مستواه يعلو تدريجيا نتيجة للفضلات التى كانت تتجمع فيه ، فكان إذا رصف من جديد ترص أحجار الرصف الجديدة فى مستوى أعـــلى فوق النفايات القديمة وبذلك كان على الساكن أن ينزل إلى المنازل على الجانبين . وعندما كان يهدم منزل ويعاد بناؤه كان الموقع يمهد ، بحيث ينشأ الطابق الأرضى الجديد على مستوى الشارع أو فوقه ، ويترك أساس البناء القديم تحت الأرض من غير أن يمس . وكان هذا الإجراء يعاد مرة بعد مرة بحيث أنه عند بناء أساس العمائر الهائلة اليوم التى تعمق فى الأرض إلى ما يعادل تقريباً إرتفاعها فى الهواء كانت فرق الحفر تخترق طبقة بعد طبقة من بقايا حوائط وردم صناعى يمثل كل منها مرحلة من مراحل نمو الحضارة .

وتعتبر نسبة الارتفاع أسرع فى الشرق الأدنى . فمادة البناء الغالبة هى اللبن ، وحوائط اللبن لا بد أن تكون سميكة ، وإذا سقطت فإنها تسبب أنقاضاً عظيمة جداً ، وتملأ الغرف إلى ارتفاع كبير ، وبما أنه ليس من الممكن أن يستعمل اللبن مرتين كما أن إزالة الأنقاض باهظة التكاليف فإن أبسط الإجراءات هو أن يمهد سطح الخرائب وأن يبنى فوقها ، وفى ذلك فائدة أخرى وهى أن البناء الجديد يرتفع بذلك بعيدا عن تأثير الرطوبة . وفى سوريا وفى العراق تقوم كل قرية على أكمة من صنعها هى نفسها ،

وقد ترتفع خرائب بعض المدن العتيقة مائة قدم فوق السهل وتلك الأقدام المائة كلها متكونة من بقايا منازل بعضها فوق بعض ، كل منها يمثله ما يبلغ ارتفاعه قدما أو نحو ذلك من حائط قائم ردمه سقوط الجزء الأعلى ثم حفظه من الزوال .

ولكن ماذا يحدث عندما تهجر بعض المواقع ؟ لنضرب لذلك مثلا معسكرا من المعسكرات الرومانية احتلته بعض الفرق العسكرية ثم هجرته بعد عدة سنوات — كيف يردم ذلك ؟ الفضل فى هذه الحالة يرجع إلى الطبيعة . وما زلت أذكر عندما أزال مجلس بلدية لندن المنازل القديمة التى كانت فى مكان بش هوس [١] اليوم كيف أن الأكوام من الطوب المكسر والملاط المنفصل اختفت تماما فى العام التالى تحت كثير من أعشاب الصفصاف البنفسجية ، ولقد اعتاد الناس حينئذ أن يقوموا برحلات فى الحافلة أو « الامنيبوس » إلى أسفل ستراند [٢] لا لشىء إلا لمجرد الاستمتاع بمشاهدة هذه المعجزة من الأزهار الطبيعية التى تخفى وراءها هذه الأطلال . ولقد حدث ذلك فى عدة أشهر : فلو أن « موقع الجزيرة » كان قد ترك من غير مساس عددا كافيا من السنين لصارت التلال يكسوها أعشاب غليظة ولصارت خرائب بوكسلرزرو [٣] مدفونة مثل

---

(١) Bush House

(٢) Strand

(٣) Booksellers Row

خرائب سلشستر (١) . وإذا كان فى الإمكان أن يحدث هذا فى قلب لندن فما أكثر ما يحدث من ذلك فى الريف حيث تحارب الطبيعة على مرمى قريب .

ولم أذكر حتى الآن طريقة أخرى قد تسبب ردم المبانى وذلك لأنها لسوء الحظ نادرة وأقصد بذلك الردم بفعل البراكين . فلو كان يحقق للعالم المنقب عن الآثار أمانيه لتمنى لو ردمت جميع العواصم القديمة ردما مناسبا بتراب بركان قريب . وإن مدينة بومپى(٢) فى إيطاليا لتثير غيرة مريرة فيمن يزورها من العلماء الذين يقومون بالتنقيب عن الآثار فى مواقع أخرى وذلك لما يرونه من الحفظ الرائع لمبانيها ، فلا تزال المنازل قائمة إلى الطابق الثانى ، والصور الحائطية على الجدران وجميع الأثاثات والأدوات المنزلية فى أماكنها كما تركها أصحابها عند ما فروا من الكارثة . وإذا تعذر حدوث البركان فإن خير ما يمكن أن يحدث لمدينة من المدن فى نظر علم الآثار هو أن تنهب وتحرق تماما على يد الأعداء . فحينئذ لا يكون الأهالى فى حالة تسمح لهم بحمل شىء معهم كما أن الناهبين يبحثون فقط عن الأشياء الثمينة فى ذاتها ، حقاً إن النار ستدمر الكثير ، ولكن ليس قطعا كل شىء ،

---

(١) Silchester

(٢) Pompeii بومبيى مدينة فى جنوب إيطاليا كان قد فاجأها بركان فيزوف فغمرها بحممة سنة ٧٩ م. ثم نسيت المدينة إلى أن تم اكتشافها حديثاً .

وسوف تسبب سقوط مقدار كبير من الرماد والطوب فوق ما يتبقى بحيث أن الباقين على قيد الحياة ، إذا قدر أن يبقى أحد ، سوف لا يكترثون بأن يحفروا إلى أسفل الانقاض ؛ والموقع الذى تدمره النيران هو على العموم موقع لا يمس . أما أقل ما يكشفه التنقيب فحيث خرائب المدن التى تندثر ببطء : فهناك يقوم السكان بهدم المبانى الأقدم ليعيدوا استعمال المادة فى أكواخهم ، كما أنهم لن يستطيعوا أن ينتجوا بأنفسهم شيئاً ذا قيمة ، ومن المؤكد أنهم لن يتركوا وراءهم شيئاً عند ما يتراءى لهم أن يهجروا موقعهم أخيراً ، ولذلك فان الطبقات العليا فى أمثال هذه المواقع تخرج على العموم أشياء قليلة ولا توضح كثيرا من التاريخ فيما عدا تاريخ الانحطاط البائس .

وإذا سلمنا بذلك أن الأشياء فعلا تدفن بطريقة أو بأخرى من هذه الطرق فقد يُسأل كيف نشرع فى العثور عليها ؟ ولماذا ننقب فى مكان ما دون غيره ؟

ليس الدفن فى جميع الحالات معناه المحو والإزالة بل إن بعض المعالم السطحية ترشد المنقب على العموم . ففى الشرق الأدنى لا يخطىء أحد الأكوام العظيمة أو التلال التى كانت ترتفع فوق السهل لتدل على المدن القديمة ، ولقد كان من الممكن فى معظم الأحيان التعرف على المكان المهم من المصادر الأدبية حتى قبل بدء التنقيب ، والحق إن الصعوبة هى فى اختيار نقطة البداية فى مساحه كبيرة جداً . ففى العراق

مثلا من المحتمل أن اعلى الأكوام يخفى الزقورة أى البرج المدرج الملاحق بالمعبد الرئيسى ؛ وفى بعض الأحيان تشير رقعة منخفضة إلى مكان المعبد نفسه . وحينما زار هيرودوت[1] مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، لاحظ أن المعابد فيها تقع دائماً فى تجاويف ؛ والسبب فى ذلك أنه بينما كانت المنازل المبنية من اللبن فى المدينة تتهدم بسرعة ويبنى فوق أنقاضها القديمة مبان جديدة مما يؤدى إلى ارتفاع مستوى سطح الأرض ، كانت المعابد المبنية من الحجر والمحفوظة فى حالة جيدة دائماً بفضل الإصلاح تعمر أجيالا عدة تظل خلالها فى نفس المستوى ومن ثم فإن انخفاضاً مربعاً فى بعض المواقع المصرية تحف به أكوام من اللبن الرمادى اللون المتهدم يعطى المنقب مفتاحا واضحاً جداً . ومن جهة أخرى كانت السدود الترابية أشياء باقيـة ، فمن الممكن مثلا أن نتتبع فى معظم الأحيان موقع معسكر رومانى فى بريطانيا وذلك عن طريق خطوط أسواره المنخفضة التى يكسوها العشب ، ولا تزال روابى مدافن الإنجليز القديمة المستديرة تشاهد بوضوح فوق الكثبان ، ولكن حتى إذا انعدمت الأشياء التى يمكن اعتبارها من المعالم السطحية فقد لانعدم وسيلة نسترشد بها . ففى صيف جاف نجد أن الأعشاب النامية فى التربة الرفيعة فوق قمم الحوائط الحجرية المدفونة تذبل بشكل أسرع من غيرها ، ولقد كان فى إمكانى أن أشاهد التخطيط الكلى

---

(١) Herodotus هيرودوت مؤرخ يوناني عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ويلقب « بأبي التاريخ » .

لڤيلا رومانية منبسطاً أمامى حيث لم يسبق استخدام معول من قبل ؛ وفضلا عن ذلك فإن الخطوط الأشد دكنة فى حقـــل قمح نام أو فى الصباح الباكر ــ وأعنى بذلك الاختلاف فى كثافة الضوء الذى يسببه الندى على السنابل تعين امتداد المبانى تحت سطح الأرض : والصور الجوية فى الوقت الحاضر تـكـشف الغطاء عن كثير من الأدلة التى تخفى على من يقف على الأرض . ولقد أرشدتنا صورة جوية إلى جميع مواقع القرية الرومانية كستور[١] ، بحيث صار فى إمكان المنقب أن يختار بثقة أى مبنى يريد أن ينقب فيه فى حين أن موقع كستور ذاته كان من قبل مجهولا ، وحتى أعجب من ذلك أن صورة جوية كشفت عن وودهنج[٢] ووضحت على السطح المســتوى للحقول المحروثة الدوائر التى كانت بمثابة الحفر حيث كانت قد نصبت قوائم خشبية منذ آلاف السنين . وفى الغالب لاتشاهد بتاتاً من الأرض أشياء من هذا القبيل ، أو قد لاتشاهد إلا فى لحظة من اللحظات السعيدة . ففى وادى حلفا فى السودان الشمالى اشـتركت مع « ماك ايڤر » فى القيام ببعض الحفائر حيث اكتشفنا معبداً وجزءاً من المدينة المصرية القديمة ، ولـكن بعد أن بحثنا فى الصحراء كثيراً لمدة شهرين فشلنا فى العثور على الجبانة التى لابد وأنها كانت متصلة بهذا المكان . وفى إحدى الأمسيات

---

(١) Caistor

(٢) Woodhenge

تسلقنا تلا صغيراً خلف المنزل لمشاهدة غروب الشمس فوق النيل ، وكنا نشكو حظنا السيء عند ما أشار « ماك ايفر » فجأة إلى السهل عند أقدامنا حيث كان السطح كله مملوءاً بدوائر داكنة لم نشاهدها من قبل على الرغم من أننا طالما وطئناها يوما بعد يوم . فنزلت التل عدواً وحينئذ اختفت الدوائر عند ما صرت قريباً منها ولكن بفضل إرشاد « ماك ايفر » من أعلى التل قمت بعمل أكوام صغيرة من الحصا هنا وهناك واضعاً وسط كل حلقة كومة وعندما بدأنا الحفر هناك فى الصباح التالى وجد عمالنا العرب تحت كل كومة البئر المربع للقبر المقطوع فى الصخر . فلقد كان حفارو القبور الأصليون قد كوموا كتل الحجر حول فوهة المنحدر ، وحينما ردموها ثانية بقى جزء منها فى أعلى ، وفى بحر الأربعة الآلاف سنة صار السطح المكون من الحجر والحصا مستوياً بحيث لم يكن فى استطاعة العين أن تميز اختلافا فى تكوينه ، ولكن لمدة خمس دقائق فقط فى اليوم كانت أشعة الشمس الساطعة من زاوية خاصة تسبب لونا أكثر دكنة فى الحجر الذى كان قد قطع من مناطقه العميقة تحت الأرض — غير أن ذلك التأثير لم يكن يشاهد مع ذلك إلا من أعلى وربما من نقطة واحدة فقط .

وفى الواقع إن عالم الآثار عليه أن يتنبه دائماً لمختلف الأدلة ولقد

استطعت فى قرقميش[1] مع « جريجورى » ملاحظ العمال الإغريقى العجوز ، وهو حفار مجرب ، إن كان هناك فى أى وقت حفار مجرب ، أن نثير دهشة مفتشنا التركى تماما . فقد أخبرناه أننا سنقوم بالتنقيب عن جبانة ، وبما أننا لم نكن قد عثرنا على قبور من قبل فقد أثار ذلك اهتمامه وطلب منا أن نريه مكانها . فأخذناه خارج الأسوار الترابية للمدينة القديمة إلى حقل محروث على جسر النهر ، وكان متروكا ذلك العام من غير زرع لإراحته وهناك أرشدناه إلى موقع الجبانة مستدلين على ذلك بقطع من الفخار المبعثرة التى اعتبرناها دليلا معقولا على ذلك وبعد التداول بدأت مع جريجورى فى عمل أكوام من الحجارة تعين بها مكان كل قبر من القبور . ولقد كان هذا كثيراً جداً على فؤاد بك الذى احتج بأننا كنا نغرر به ، فراهنته على أننا سوف نعثر على قبر تحت كل كومة ولن توجد قبور بالمرة إلا حيث وضعنا علامة ، وقبل فؤاد بك الرهان وخسره ، وقضى شهراً متسائلا بتعجب كيف حدث ذلك . وكانت المسألة فى الحقيقة قضية استنتاج بسيطة . كان جسر النهر من حصا صلب ، والتربة فوقه قليلة العمق بشكل ملحوظ ، وقد أثيرت إلى عمق حوالى ٣ بوصات فقط بواسطة المحراث العربى الضعيف ، ولكن لما كان الحقل متروكا من غير زرع لإراحته فقد كان معظمه

---

(١) مدينة قديمة فى شمال سوريا استعمرها كل من الحيثيين والإغريق والرومان على التعقيب .

مكسواً بأعشاب متفرقة ذات جذور قليلة الغور ولكنها كان فى جملتها خليط من أعشاب أقوى ومن نوع قد تعمقت جذوره إلى أسفـــل ، ولو دقق الإنسان النظر لاتضح له أن هذه الأعشاب كانت فى بعض الأحيـان مفردة ولكنها فى معظم الأحيان كانت على شكل حزم يتألف كل منها من أربعة أو خمسة من النباتات ، غير أن الحزمة لم تكن تمتد أكثر من ست أقدام عرضاً ؛ وفى بعض الاوقات كانت التربة السفلى قد انشقت بحيث أن جـــذور النبات أمكنها أن تتخللها ، وكانت هذه الشقوق فى مساحة مناسبة تماما للقبور ، أما الفخار المهشم على السطح فكان يمثل إما مدافن قليلة الغور أو قرابين موضوعة فوق القبور على مستوى الارض ، والأخيرة أقرب احتمالا ومن ثم كان كل عشب عميق النمو أو حزمة من الأعشاب تعين بئر قبر من القبور . وقد جاء الاستنتاج صحيحاً .

ولقد كان الاستنتاج الذى أدى إلى اكتشاف قبر توت عنخ آمون[1] من نوع آخر . فوادى الملوك فى طيبة يشمل القبور المعروفة لجميع فراعنة الأسرة الثامنة عشرة فيما عدا اثنين : ومن الواضح أنه كان جبانة الأسرة ولذلك كان من الضرورى أن يعثر هناك على جميع قبور ملوك تلك الأسرة ، وبما أنه كان لايزال اثنان منها لم يعثر عليهما بعد فقد كان على المنقبين أن يبحثوا عن هذين القبرين المفقودين

(١) انظر ص ١١ هامش ١

ولكن فى حدود الوادى . ولقد قضى « اللورد كارنارفون » ثلاث سنوات فى ذلك الجزء من الوادى الذى لم يكن قد نقب فيه بعد ، نقل خلالها آلاف الأطنان من شظايا الحجر الجيرى التى كانت تملأ أسفل الوادى ، وكشط جوانب الجرف باحثاً عما يمكنه أن يكون مدخلا لقبر . وفقط عندما أوشك هذا العمـــل المضنى على نهايته حدث الاكتشاف المدهش الذى لايدين هو وزميله « هوارد كارتر » بنجاحهما فيه لضربة حظ سعيد ولكن يرجع للمثابرة على تتبع نظرية منطقية .

الفصل الثانى

الشروع فى التنقيب

إن هدف العالم المنقب عن الآثار ، هو أن يكشف مجرى التاريخ البشرى ويوضحه ، ومعنى هذا فى حقيقة الأمر أن مهمته مهمة معقدة إذ أن ذلك الرجل الذى يلازمه الحظ السيء يعمل تحت تأثير عاملين ليست أهدافهما واحدة وإن كان كل منهما لازماً كالآخر . فمن جهة عليه أن يحصل على تسجيله العلمى . وكما قلت من قبل إن ما نتعلمه من حقائق الاكتشاف وظروفه يعتبر من أهم الأشياء المكتشفة نفسها ، ومن ثم كانت أكثر الأشياء جمالا تستنفد كل أهميتها بعد أن تستخرج منها جميع الأدلة التاريخية الممكنة ، وقد لا يفيد كثيراً إن لم توجد بعد ذلك ، وعلى هذا فإن الزلزال الذى هز كريت منذ ثلاثة أعوام لو كان قد أزال متحف كنديا بجميع محتوياته بدلا من مجرد تحطيم صورة أو صورتين حائطيتين لما كان فى ذلك من الناحية العلمية غير خسارة ضئيلة نسبياً ، بصرف النظر عن

الخسارة الفنية الفادحة ، وذلك لأن النشر قد سجل النتائج التاريخية للحفائر فى كنوسس[١] وفايستوس[٢] والمواقع المنيوية الأخرى تسجيلا دائماً .

ومن جهة أخرى فإن المنقب عن الحفائر معتمد على العموم على مؤسسة حريصة على الحصول على عينات تزين متاحفها وهـذا من غير شك دافع حسن لأن لفت العين يعتبر خير الوسائل لإيقاظ العناية بنوع جـديد من المعرفة — وكما يقولون « الرؤية هى الاعتقاد » ، والمتاحف عامل مهم فى التعليم . ولذا على عالم الآثار أن يكون حريصاً على حفظ الأشياء بقدر حرصه على العثور عليها ، ومن ثم كانت مشاغله على الأقل مضاعفة . وإذا كان المنقب يعمل فى قطر مثل انجلترا فإن هذا لا يهم كثيراً لأنه فى استطاعته على العموم أن يحصل على مساعدة ماهرة فى حالة المفاجآت ، ولكن حيث تكون البعثة مستقلة بذاتها فإنه لا يتوقع من رجل واحد أن يسد جميع حاجياتها ، ومن ثم تظهر مشكلة هيئة المعاونين الذين يأخذهم معه .

وتشغيل بعثة فى الحفائر يشمل إلى جانب التنقيب الفعلى أموراً عدة فيجب أن تجهز استمارات الصرف وتكتب المراسلات وتنظم

---

(١) أنظر ص ١٥ هامش ١

(٢) إحدى المدن القديمة فى كريت (أنظر ص ١١ هامش ٢ ، ص ١٥ هامش ١) .

الحسابات، كما يجب أن يشرف على إنشاء المعسكر وتزويده بالطعام: وإذا كانت التنقيبات من النوع الذى يعثر فيه على وثائق مكتوبة فلا بد أن يلم المنقب بخلاصتها على الأقل حتى يكون على علم باكتشافاته أولا بأول وحتى يكون لديه أكثر ما يمكن من الإرشادات اللازمة لتوجيهه ؛ كما يجب أن يمسح الموقع ، وترسم التخطيطات لكل مبنى كما يعثر عليه: وحتى لو فرضنا أن رئيس البعثة فى استطاعته أن يعمل كل شىء من هذه الأشياء ، فإنه لا يستطيع أن يعملها جميعها ، ولذا فعليه أن يستعين بمهندس وبقارىء للخطوط ، كما يحتاج على الأقل إلى مساعد للإشراف العام على الحفائر ؛ وهكذا فإن أربعة أو خمسة من الرجال المتخصصين كل فى فرعه يعتبر أقل عدد يمكن أن تتزود به بعثة كبيرة حتى تسير بنجاح . ويجب أن أؤكد بشدة شيئاً واحداً ؛ ألا وهو أن عملية الحفر ليست إلا نوعا من التهديم ؛ فالعالم المنقب عن الآثار يكشف مبنى من المبانى ، وربما يصل إلى ذلك بعد أن يزيل بناءين أو ثلاثة أحدث ؛ ويمكن مشاهدة جدرانها أو إذا كانت الرمال التى تثيرها الرياح قد غطتها مرة ثانية فيمكن أن يعاد حفرها من جديد إلا أن جميع الشواهد التى يعطيها ترتيب الطبقات تكون قد ذهبت ومن ذلك مواضع الأشياء وآثار رماد الخشب والطوب المتساقط فكل هذه لا يمكن الحصول عليها مرة ثانية .

فبعد التنقيب فى قبر لا يتبقى منه إلا حفرة فى الارض ومجموعة من الأشياء فى متحف من المتاحف ، وأى دليل يفوت المنقب أن

يلاحظه يضيع إلى الأبد ، وما لم يكن تسجيل المنقب كاملا من الناحية العلمية فإنه يكون قد غش العلم وكان من الأولى ألا يحفر بتاتاً .

وإزاء هذه المسئولية الثقيلة لابد للمنقب أن يكون واثقاً من أن مساعديه قادرون على العمل الذى سيقدم عليه . وهنا نتساءل :

ألا يقوم إذن عالم الآثار بالتنقيب بنفسه ؟

فى بعض المواقع خصوصاً فى قطر مثل انجلترا يتم التنقيب فى معظم الأحيان فى مكان محدود جداً إذ يقوم بالعمل فيه ستة رجال أو اثنا عشر رجلا فقط قد يكون بعضهم متطوعين لديهم من الاهتمام ما يجعلهم على درجة عظيمة من الحرص والدقة وفى حاجة إلى الإشراف أقل من العامل العادى . وفى تلك الحالة قد يكون مدير العمل أحد أفراد الفرقة . وحينما كنت أنقب فى جبانة من العصر الكلتى المتأخر بالقرب من كنتربرى[١] كان فى استطاعتى أن أساهم بدورى بالعمل بالمعول وعربة اليد وفى الوقت نفسه لا يفوتنى شىء مما يقوم به رجالى الخمسة ، ولكن العمل فى موقع مثل أور[٢] على ذلك المقياس الصغير لن يقدر له أن ينتج أية نتائج مفيدة . فمن الضرورى أن تستخدم هناك فرقة كبيرة ، ونظراً إلى أن المصاريف الإضافية كمصاريف الانتقال وما أشبه ذلك لابد أن

---

(١) Canterbury

(٢) أنظر ص ١٢ هامش ١

تكون باهظة ونظراً إلى أن موسم الحفر قصير ومن المتعذر زيادة اعتمادات الأعمال الأثرية ، لذلك وجب أن تستغل خير استغلال . وكان من الأوفر أن يستخدم أكبر عدد ممكن من العمال ، أى أكبر عدد من الممكن استخدامه للتنقيب فى الموقع المعين تنقيباً مثمراً بحيث تستطيع هيئة المشرفين أن تساير إنتاجه . وليس هناك حد واضح لهذا العدد . فاذا كان من المفروض أن ينقب فى خرائب معبد حيث يلزم أن ينقل منه مقدار كبير من التراب وحيث يتوقع أن تكون الأشياء المكتشفة قليلة فإن هيئة مؤلفة من خمسة قد يمكنها أن تشرف على ٣٠٠ رجل بشرط أن يتوفر لديهم ملاحظون أكفاء يستطيعون أن يعاونوهم فى الإشراف الفعلى .

وفى المقبرة الكبرى فى أور[1] لاقت نفس الهيئة مصاعب كثيرة ، حتى تلاحق فرق الحفر المؤلفة من ١٨٠ رجلا وذلك لأنه عثر فى المقابر على أشياء كثيرة كانت تحتاج إلى عمل دقيق جداً وإلى ملاحظات مفصلة ، ولكنها كانت تقع على عمق كبير فى التربة ولذا كان الوصول إليها بطيئاً ، ولو كان عثر على قبور مماثلة بالقرب من السطح لاضطررنا إلى أن ننقص فرق الحفر إلى النصف . وينظم عمل فرقة كبيرة من هذا النوع فى أور على الوجه التالى . يوضع جميع الرجال تحت الإشراف المباشر

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

لثلاثة من الملاحظين العرب المدربين والموثوق بهم ؛ وليس هؤلاء عراقيين ولكنهم من شمال سوريا ، أما العمال فيجمعون من الأماكن المجاورة . ويقسمون إلى فرق صغيرة تتكون كل منها من رجل يعمل بالمعول ورجل بالجاروف وثلاثة رجال أو أربعة بالسلال . ويجب أن يكون صاحب المعول أكثر فرقته تجربة وذكاء وهو فى العادة رجل قد سبق أن استخدمناه عددا من السنين . ويجب ألا يكون كبيراً لدرجة تجعله كسولا ولا صغيراً بحيث يميل إلى إظهار السلطة ؛ والآلة التى يستخدمها هى آلة من النوع المستعمل فى الجيش لحفر الخنادق ، وهذه فى نظرى أصلح الآلات للتنقيب فى العراق ؛ ويعتبر صاحب المعول رئيس فرقته الصغيرة ، وبما أنه هو الذى يقوم بالحفر الفعلى فى التربة كان عليه اكتشاف الأشياء ، وعلى عاتقه تقع مهمة إخراجها من غير تلف . والرجل الثانى يستخدم جاروفاً عراقياً له يد طويلة ومهمته أن يضع التراب المحفور فى السلال ، وإذا فات صاحب المعول شيء رآه صاحب الجاروف . أما رجال السلال فهم إما كبار السن الكسالى أو الصغار المجموعون ، ومهمتهم آلية صرف — وهى مجرد حمل السلال المملوءة إلى القضبان الصغيرة حيث يفرغون التراب فى العربات ثم يرجعون لنقل غيره . ومن حيث القيمة الذاتية ربما يعتبر أصحاب السلال أقل أفراد فرق الحفر ولكن يجب أن نتذكر أنه على المسافة التى يقطعونها وسرعة خطاهم يتوقف الجزء الكبير من سير العمل فى التنقيب ومقدار تكاليفه . وعلى المشرف أن يجعل نهاية

القضبان أقرب مايمكن إلى أعمال الحفر وعلى الملاحظ أن يمنع أى تباطؤ على الطريق .

أما الملاحظ العربى فيلى من حيث الأهمية عالم الآثار نفسه أثناء التنقيب ، فعليه يتوقف تصرف فرق الحفر جميعها وليست مهمته أن يحثهم على العمل فحسب إذ أن الملاحظ الذى يجلس على الأرض وينادى فقط « يالله يالله » لايؤدى فى الواقع واجبه حتى ولو كان الرجال يسرعون الخطو تلبية لصرخته ، بل لابد أن يكون هو نفسه أمهر رجل فى الموقع حتى يستطيع أن يرشد الباقين إلى مهمتهم ويعقهم فى العمل إذا جد ماقد يكون من المحتمل أن يرهقهم — ومعنى هذا أنه يجب أن يعرف مقدرة كل فرد وطبيعة عمله ، وأن يكون فى إمكانه أن يتصور تماماً ماتقوم به كل فرقة من الفرق الفرعية حتى يستطيع أن يقدر المشكلة تقريباً قبل ظهورها ، ويجب أن تتوفر لديه تلك الحماسة التى توحى إلى العمال بأن يبذلوا أقصى مافى وسعهم بدافع من الفخر فى عملهم لالمجرد أنهم مسوقون . ويجب أن يكون سياسياً حسن التصرف حتى يستطيع أن يهدىء الشجار وأن يحافظ على حسن العلاقات بين أفراد الفرقة . وإن رجلا مثل هذا ، إذا أمكن العثور عليه يعتبر جوهرة ثمينة ، وأحسب أن قليلا من العلمـــاء المنقبين عن الآثار من لايعتقدون أن ملاحظيهم هم وحدهم أكفأ الناس لهذا النوع من العمل .

ومن القواعد العامة أن يدفع المنقب بقشيشا لرجاله مقابل الأشياء التي يعثرون عليها بالإضافة إلى أجورهم. وقد يعترض على ذلك نظرياً بأنه لا أحقية للعامل فى مكافأة إضافية على ما قد ينتجه عمله الذى أخذ عليه أجراً مناسباً، ولكن الواقع أن نظام « البقشيش » نظام أساسى من حيث التطبيق العملى. وذلك لأن عثورك على شىء يمنحك فعلا شعوراً خاصاً بالامتلاك من ناحية كما أن الأحقية الأدبية من ناحية أخرى تبرر التعويض لا سيما إذا كنت مضطراً إلى تسليم هذا الشىء لشخص آخر، ولذا فإن المكافأة تعتبر فى الواقع تأميناً ضد السرقة وتقرر عادة حسب المبلغ الذى قد يدفعه عميل لأحد تجار العاديات نظير سرقة هذا الشىء المكتشف. وأخيراً تعتبر المكافأة تشجيعاً مباشراً على العمل المنتج لأن الشىء الذى يكسره العامل لاتدفع عنه مكافأة وإن دفعت فهى ضئيلة جداً. ولذا فليس من مصلحته أن يتنبه فقط ولكن أن يتصرف أيضاً بعناية إزاء مايراه، وإذا عمل شىء بإهمال فمن الأفضل للمشرف على الحفائر أن يمنع المكافأة عن أن يخصم من أجر مكتسب وذلك حتى لايثير البغضاء فى النفوس. وفى حفائر أور[1] كانت الفرقة المؤلفة من خمسة أو ستة يعملون معاً تعتبر هى الوحدة التى يوزع بينها « البقشيش »، وتوزع المكافأة على الجميع حسب الأجور، إلا أن صاحب المعول الذى يعثر على معظم الأشياء ويقوم بالعمل الدقيق يخرج بنصيب الأسد، وصاحب الجاروف

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

يحصل على أكثر قليلا من نصف ذلك ، أما أصحاب السلال فيحصلون على نسبة ضئيلة فقط ، فللجميع مصلحة مادية فى كل اكتشاف يتم فى البقعة التى يعملون فيها ، والسرقة على يد أى واحد منهم تؤدى إلى حرمان الباقين ، ولذا فإن سوء الظن المتبادل فيما بينهم هو ضمان عملى ضد فقدان أى شيء ، وعلى الملاحظ أن يرى أن الفرقة لاتتكون من رجال من المحتمل اتفاقهم معاً على السرقة . ومن الطبيعى أن صاحب معول ذا مهارة فوق المتوسط من الأنسب تكليفه بالعمل حيث تنتظر النتائج الحسنة ، ومن ثم فإنه يحصل على « بقشيش » أكبر من غيره ، وبما أن النظام يشمل إعطاء أجر إضافى على العمل المنتج فى ذاته ، حتى ولو كانت الأشياء المكتشفة ذات قيمة ذاتية قليلة ، فسوف يتحقق الجميع من أن المهارة لها فائدتها ، وبالتدريج يتعلم الجميع تقدير المهارة لذاتها . وقد يبلغ « البقشيش » فى موسم متوسط ١٥ ./. من الاجور ، وليس هذا بالكثيرجداً مع أن له آثاراً لا يحققها بأية حال مضاعفة الأجر . كما أن عنصر المقامرة الذى يضفى حيوية على «روتين» العمل العادى له جاذبية خاصة للعرب الذين يعتبرون بطبيعتهم مقامرين ، ولو أنى أعتقد أننى وجدت له نفس الأثر عند العمال الإيطاليين أو الإنجليز ، ومما يوفر فعلا مقداراً كبيراً من النية الحسنة أن كل ضربة حظ سعيد غير متوقعة تعنى حظاً للعمال وتبعث الرضى فى نفس صاحب العمل . ولقد قضيت فى العُبيد[1] ثلاثة أسابيع

---

(١) العبيد موقع مدينة قديمة فى جنوب العراق ترجع نشأتها إلى العصر ما قبل السومرى (أنظر ص٢٢ هامش ٣) . وإليه تنسب حضارة تل العبيد التى تعتبر أقدم الحضارات فى جنوب العراق فى عصر ما قبل التاريخ .

أحاول نقل تمثال ثور من النحاس الأحمر ، وفى آخر لحظة تهاوى كله إلى قطع لاقيمة لها من الصدى الأخضر ، وفى وقت الغداء سمعت أعرابياً يندب حظ أحد أفراد الفرقة التى كان يهمها « البقشيش » الذى كان مفروضاً فيه أن يكون كبيراً والذى كان متوقفاً على نجاح العملية ، ولقد كان رد الآخر على ذلك : « إلى جهنم بالبقشيش » ثم استمر يعلن أنه كان مستعداً أن يتنازل عن أجر أسبوع فى سبيل أن يرفع بسلام هذا الذى استغرق ذلك الوقت الطويل والمجهود الكبير. ومن الطبيعى أنه لو تم ذلك ماكان يسلم فى أجره ، ولكن بمجرد استطاعته أن يتصور نفسه فاعلا ذلك كان يعنى أنه حريص بحق على نجاح المهمة . وعدد قليل جداً من الناس هم الذين لايفخرون بأداء عملهم بإتقان بشرط أن ينالوا التقدير الحسن ، وأعرابنا المدربون سوف يبذلون جهداً كبيراً فى تتبع حائط من الطوب ، وتنظيف وجهه ليحفظوا كساءه الطينى سليما حتى على الرغم من ضياع الأمل فى المكافأة على ذلك ، ويقولون بسرور مطمئن « هذا فى خدمة العلم ! » وإن كانوا لايعرفون ماهو العلم ، غير أنهم لايخفون تفضيلهم للمكان الذى ينتظر العثور فيه على أشياء يصحبها « البقشيش » .

وبمجرد أن يشاهد صاحب المعول أى شىء يحتمل أن يكون ذا أهمية كوجه حائط من اللبن أو خضرة نحاس أحمر أو برونز أو إناء من الفخار أو مجرد تغير فى طبيعة التربة عليه أن يبلغه فوراً لأقرب ملاحظ ، وهذا بدوره يتناول المعول حتى يقتنع بنفسه بحقيقة الشىء ،

وبعد ذلك إما أن يكلف الرجل بالاستمرار بعد أن يزوده بالتعليمات اللازمة وإما أن يستدعى أحد أفراد الهيئة ، وحينئذ يتحتم على العالم المنقب عن الآثار الذى قد يكون فى ذلك الوقت يسجل بعض الملاحظات فى مكان آخر من الموقع أن يتناول المعول بدوره أو يتناول على الأرجح سكيناً ، وقد يقضى الساعات التالية جاثماً فى نفس الحفرة فى وضع متعب مستغرقاً فى الحفر وفى تسجيل الملاحظات وفى محاولة الكشف عن شيء هش على وشك الانهيار . ومن الواضح أن عملية إزالة الأنقاض يجب أن تترك للعمال وأن الحفر الذى على العالم المنقب عن الآثار أن يقوم به قد لايشمل سوى مجهود يدوى بسيط ولكن من المسلم به أن نسبة كبيرة من وقته تستنفد فى الحفر على أية حال .

وإن الأغلبية العظمى من التحف الجميلة التى عثر عليها فى أور قد تم فعلا اكتشافها كلياً أو جزئياً على يد الهيئة الإنجليزية . ووجه الصعوبة هو فى الجمع بين هذا العمل الجزئى الضرورى وبين الإشراف وتسجيل مايجرى فى جميع الأجزاء الأخرى من الموقع ، ولقد كان علينا بين كل وقت وآخر أثناء التنقيب فى الجبانة أن ننقل الرجال مؤقتاً من موقعهم إلى موقع آخر حيث لم يكن من المحتمل أن يظهر فى المستويات العليا شيء يحتاج إلى كثير من الإشراف ومن ثم تتاح لنا الفرصة للتركيز فى إنقاذ الكنوز التى تكون قد كشفت عنها فرقة أو فرقتان . وسوف أتكلم عن هذا النوع من العمل بشيء من التفصيل فيما بعد ولقد ذكرته هنا لأوضح فقط كيف تنظم الأشياء

ويقسم العمل ؛ وأود قبل أن أصف كيف تنبش الآثار أن أعطى فكرة عن كيفية الشروع فى التنقيب عنها .

إذا فرضنا أن منقباً قد شرع فى العمل وأقام خيمة وجمع رجاله وقرر أن يبدأ بالعمل فى موقع بعض المدن المدفونة لم يسبق فيه حفائر من قبل وليس لديه معلومات سابقة عنه يسترشد بها فما هى خطوته الاولى ؟

أول كل شىء عليه أن يدرس معالم السطح . قد يكون الموقع كبيراً ومن ثم يجب عليه أن يختار نقطة خاصة يبدأ منها ، ومن المحتمل جداً أن يكون هناك شىء واضح قد يؤثر فى اختياره . ففى مصر مثلا قد تغطى تلال المدن عددا كبيراً من الأفدنة ومع هذا فقد يستدل على مكان المعبد بواسطة قطع من الحجر ظاهرة للعيان حيث كانت معظم المبانى من اللبن ، أو ببقع من تراب أبيض تشير إلى المكان الذى انتزع منه جيل أحدث الأحجار المدفونة وحرقها للحصول على الجص . وحيث كان الحجر المادة العادية للبناء كانت منازل الفقراء تبنى حوائطها من « دقشوم » أو قطع حجرية صغيرة غير مهذبة الجوانب وبذلك كان وجود الكتل الحجرية يرجح احتمال العثور على شىء ذى قيمة أكبر . وفى سوريا وفلسطين يمثل التل المنعزل على العموم المدينة القديمة ، وقد يعطى شكله فى هذه الحالة فكرة عما يوجد أسفل السطح : فقد تكون القمة العليا الواقعة فى أحد طرفى خط طويل هى

الحصن أو القصر الذى تسبب عن انهيار جدرانه الضخمة كومة عالية من الأنقاض ، بينما يعين التل ذو الحافة المستديرة التى يقطعها فراغ فى نقطة واحدة الأسوار وبوابة المدينة . وفى العراق حيث تمتد مجموعة معقدة من التلال المتصلة مسافة أميال ربما يمثل أعلاها مبانى رفعت عن قصد على مصاطب صناعية مثل الزقورة ، أوتعين فى معظم الأحوال الأحياء التى استمرت فيها الحياة البشرية مدة أطول ، ويرجع الارتفاع فى هذه الحالة إلى تكرار بناء منـــازل جديدة على الأنقاض القديمة . ويمكن فى أغلب الأحيان حل المشكلة بواسطة الفخار المهشم فوق سطح التل . فمثلا فى موقع مدينة الوركاء[١] أو « ارش » وهو موقع متسع جداً كان من الواضح أن إحدى الكومات تمثل الزقورة أو البرج المدرج ، بينما كانت كومة أخرى عليها شقافات من فخار پارثى[٢] ، تشير إلى أن مستوياته العليا كانت ترجع إلى أحدث

(١) من مدن العراق القديمة واسمها القديم «أُرُك» وقد ذكرت فى التوراة باسم « أرش » ؛ ويعتقد أنها بلد البطل الخرافى السومرى جلجامش . وترجع نشأتها إلى عصر حضارة ارك الذى يلى عصر حضارة تل العبيد (أنظر ص ٤٣ هامش ١) . وقد ظلت هذه المدينة عامرة عمرانا متواصلا نحو أربعة آلاف سنة .

(٢) نسبة إلى البارثيين Parthians الذين كانوا يسكنون فى پارثيـا Parthia فى شمال ايران إلى الجنوب الشرقى من بحر قزوين . وقد استطاعوا أن يخلفوا السلوقيين فى حكم ايران فى القرن الثانى قبل الميلاد ؛ وحوالى سنة ١٤٠ ق.م. كانوا قد استولوا على بلاد العراق ، ومدوا حكمهم حتى نهر الفرات ، وبذلك تحول المركز السياسى والاقتصادى فى العالم إلى شواطىء الدجلة حيث بقى نحو أربعة قرون . وكانت عاصمتهم مدينة طيسفون Ctesiphon إلى الشرق من نهر الدجلة .

التواريخ التى سكنت فيها المدينة ؛ ومن جهة أخرى فإن جسراً منخفضاً — استطاع الإنسان أن يلتقط من فوق سطحه قطعاً من الفخار الملون وشظايا من الصوان أو حجر الابسيديان — كان يمثل بوضوح جزءاً من أمكنة الإقامة التى إما أنها لم يبن فوقها بتاتاً فى الأزمنة السالفة أو ربما قد تمت تعريتها بواسطة الهواء والماء بحيث لم يبق إلا أقدم الطبقات فقط . وعلى كل حال ففوق سطح تل آخر أوضحت مقادير من الثقافات الكاشية [1] غير مختلطة بأية ثقافات أخرى من تواريخ أحدث أن البناء على هذه البقعة خاصة كان قد توقف مباشرة بعد سنة ١٠٠٠ ق . م . ومن ثم فلدى العالم المنقب عن الآثار بعض معالم توجه اختياره ، بشرط أن يكون فى استطاعته أن يؤرخ فخاره ، ولكن على أية حال فإن عالم الاثار يجب أن يبدأ عمله بشق خندق سواء اختار نقطة البدء عفواً أم ارتكز على قرائن علمية وهكذا تتفق طريقة العمل فى كل منطقة .

وطريقة ذلك أن يعلم خط فوق التل إما مستعرضاً له تماماً وإما من أعلاه إلى ماوراء أسفله بمسافة . وعلى طول ذلك الخط يعين لكل فرقة مسافة مربعة تعمل فيها ، وقبل أن يحفر الخندق لعمق كبير تظهر من غير شك أجزاء من الحوائط تمتد مستعرضة له . وهنا

(١) نسبة إلى الكاشيين الذين قدموا من المناطق الجبلية شرقى الدجلة ، وأغاروا على العراق فى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. وقد اتخذوا بابل عاصمة لهم حكموا منها بلاد العراق كلها نحو قرن من الزمان .

تظهر المشكلة الأولى التى يجب علينا أن نبت فيها وهى إذا كانت هذه القطع الصغيره من الحوائط ترجع إلى تاريخ واحد؛ وإذا لم تكن كذلك — ولاشك فى أنها ليست كذلك إذا كان التل مرتفعاً بعض الشىء وشديد الانحدار — كان علينا أن نختار أحدث الحوائط ونركز عملنا عليه، وذلك لأن التنقيب فى بناءين من تواريخ مختلفة فى وقت واحد يسبب كثيراً من المشقة، إذ يصير من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، أن تعين الطبقة الصحيحة للأشياء التى يعثر عليها، ومادمنا نعجز عن الحصول على الأشياء فى أوضاعها الصحيحة فسوف نفقد الترتيب الزمنى أونربكه. ولذلك يجب أن نتوقف عن حفر الخندق بمجرد تأديته لغرضه — وذلك بالعثور على مواضع الأبنية — ومن ثم يجب أن يتجول الرجال ليتتبعوا الحوائط يميناً وشمالا، إذ أنه أقرب إلى الصواب أن يبدأ العمل من المعروف إلى المجهول وليس من شك فى أن الحائط يعتبر حقيقة قيمة ملموسة. وفى مصر تعتبر هذه المهمة سهلة بوجه عام لأن الخرائب المصرية تغطيها الرمال التى تنهار بسهولة من حول الحوائط التى إما تكون مشيدة من اللبن أو غالباً من الحجر المقطوع. ولكنها تصعب جداً فى التربة الرطبة حين يراد الكشف عن مبان من اللبن مدفونة فى أنقاض نتجت عن انهيار حوائطها نفسها فتصبح طبيعة الحوائط فى هذه الحالة من نفس طبيعة الأنقاض التى تغطيها، ومن ثم لابد من مهارة للتمييز بين اللبن الساقط واللبن القائم. وإنى لأعرف عالماً ألمانياً من علماء الآثار

المصرية كان يقوم للمرة الاولى بحفائر فى موقع من هذا النوع أخذ يزيل كل حائط من اللبن يصادفه حتى لم يبق من المبنى — الذى كان ارتفاعه ست أقدام عند بدء الحفر — سوى عتبات الأبواب التى كانت بالصدفة من الحجر . وحتى الحوائط الحجرية نفسها ليس من السهل تتبعها دائماً ، فإذا كانت مبنية من قطع حجرية غير مهذبة وملاط من الطين قد يكون وجهها الحقيقى قد زال وربما يكون الملاط قد تسرب والأحجار قد انزلقت من مواضعها بحيث لايتبقى لدينا إلا القليل من الفروق بين الحائط نفسه والأحجار الصغيرة المتراكمة عليه . وفى حالة حائط مكسو بكتل حجرية مهذبة قد يكون هذا السطح قد انتزع على يد جيل أحدث لاستخدامه كمادة فى بناء آخر وهنا قد لايبقى غير اللب الداخلى المكون من قطع حجرية غير مهذبة والذى يندر بالمرة أن يكون له شكل البناء . وأعظم اختبار لمهارة منقب فى هذا النوع من عمله هو حينما يكون عليه أن يتعرف على حوائط الطين المضغوط وهى حوائط غير مبنية من اللبن بل شيدت من كتل من الطين دُكت بعضها إلى بعض وربما يعتبر بديلا بدائيا للمسلح . وفى هذه الحالة ينعدم سطح الحائط المحدد الذى يمكن أن يسترشد به المنقب وكل ماهنالك هو اختلاف بسيط فى تكوين السطح يستطيع المنقب بفضله أن يميز بين الحائط وبين الأنقاض المتراكمة ، وهو مضطر فى هذه الحالة أن يعتمد فى عمله على الإلهام بقدر اعتماده تقريباً على النظر؛

وإذا استطاع ، بعد أن تتضح آثار اللون نتيجة التجفيف فى مدى أيام ، أن يتحقق من أنه لم يخترق حوائطه أو لم يقم حوائط مزورة . وذلك بترك كميات من الطمى الطبيعى قائمة كما لو كانت جزءاً من البناء الأصلى — فعندئذ فقط له أن يشعر بالاطمئنان إلى عمله .

وفى أثناء تتبع إحدى الفرق لكل وجه من أوجه الحوائط عن طريق حفر خندق ضيق لهذا الغرض تكلف فرق أخرى وراءها بالتعمق للوصول إلى أرضية المبانى إن أمكن ، فى حين توجه باقى الفرق لإزالة الأنقاض من الغرف بمجرد تبينها . وإذا أمكن تمييز أرضيته فى حالة جيدة — سواء أكانت من الطوب أم من التراب المعبد — يجب أن يقف التنقيب عند هذا الحد من العمق فى هذه المرحلة ، أما إذا لم يكن هناك شىء فيجب أن يقف الحفر عند عمق يعتقد أن تكون الأرضية فى مستواه ، أى فوق مستوى أساسات الحوائط بقليل. وسبب ذلك واضح . فكل شىء يعثر عليه فوق مستوى الأرضية يعتبر معاصراً أو أحدث من البناء ، وكل شىء يعثر عليه أسفل الأرضية يعتبر أقدم منه ، أى أن الرجل الذى كان يعبّد ذلك الطين ليرصف به منزله كان فى الواقع يحدد طبقة أثرية ، وينبغى علينا أن نستفيد من عمله القيم ، لا أن نخلط بين الأدلة الواضحة. وعلى ذلك يجب أن ينظف البناء العلوى أولا ، وأن يرسم تخطيطه ، وأن تلاحظ محتوياته بعناية ، خصوصاً أنواع الفخار الذى عثر عليه فيه ، وبعد

أن يسجل كل شيء يمكن معرفته عنه أو استخلاصه منه يجب أن يزال جميعه ، وأن تخلع أساساته ، وبعد ذلك يمكن أن يبدأ التنقيب عن المستوى التالى .

ليس هذا عند التطبيق دائماً بالبساطة التى قد يبدو بها . فربما يكون المنزل أحياناً قد خرب أو حرق ، ولكن أجزاء من حوائطه قد تركت قائمة فوق الأرض ، ثم أدخلها البانى التالى على نفس الموقع فى منزله الجديد . بحيث ترجع الحوائط الواحدة نفسها فى الحقيقة إلى عصرين مختلفين . وقد يقوم أحد المنازل من غير تغيير فى حين يبنى المنزل المجاور له مرتين ، وبالتالى يصبح مايعثر عليه فى غرف المنزل الأول مقابلة فى التاريخ إلى محتويات ثلاث مستويات أرضية مختلفة فى المنزل المجاور ، ومن جهة أخرى قد تقوم منازل متجاورة من تاريخ واحد فى مستويات مختلفة جداً وذلك بسبب بعض حوادث للبناء السابق . كل هذه الأشياء وأشباهها قد تؤثر فى النتائج وعلى العالم المنقب عن الآثار أن يلاحظها بدقة وأن يقدّر لها الاحتمالات المناسبة إن أراد أن يقدر له أى نجاح فى عمله .

وهناك استثناء واحد للقاعدة العامة التى بمقتضاها يبدأ الإنسان عند القمة ثم ينزل طبقة بعد طبقة ، ويبرر هذا الاستثناء فقط إذا كان الغرض الأساسى هو الحصول على معلومات خاصة محددة ، وليس تنظيف المبانى . فقد يكون من الضرورى أن يعرف من البداية

نوع تل من التلال : أهو يمثل عصراً طويلا أم مرحلة واحدة من مراحل التاريخ ، وإذا تتبعنا طريقة الحفر من القمة فلن نستطيع أن نعرف ذلك إلا على درجات بطيئة ، ومن جهة أخرى قد تكون معلوماتنا عن آثار قطر من الأقطار من الضآلة بحيث نجد صعوبة فى تحديد عصور الأشياء التى نعثر عليها فى المستويات المتتالية — ولذا نحتاج إلى إقامة نظرية نقيس عليها اكتشافاتنا . ومن ثم يمكن استخدام منهج مختلف . ولقد أجرى فى فلسطين بعض الحفائر المستقلة ولكن لم يتتبع فيها تاريخ متصل وعلى الخصوص لم يعرف عن الفخار فيها إلا القليل جداً — فى حين أن أسلم مقاييس للتاريخ يمكن أن يحصل عليها عالم الآثار هى الاختلافات التى تطرأ على طرز الأوانى الفخارية . وفى سنة ١٨٩٠ ذهب « فلندرز بترى » ليقوم ببعض الحفائر فى لاشيش فى جنوب فلسطين ، وهى مدينة قديمة مذكورة فى التوراة يمثلها الآن تل تصعد جوانبه صعوداً رأسياً من السهل ، وقد بدأ بترى بأن حفر خندقا يمتد فى الجانب الرأسى من قمة التل إلى أسفله . ورتب أصحاب المعاول على مسافات معينة واحداً فوق الآخر على طول المنحدر ، وكان على كل منهم أن يحفر فيه درجة أفقية ؛ وكانت الأشياء التى تعثر عليها كل فرقة من الفرق تفصل وتسجل على انفراد . وكان التقسيم إلى فرق بطبيعة الحال صناعيا ، لا يتفق بأية حال مع طبقات التل ، ولكن حينما أصبحت البيانات الخاصة بكل مستوى كاملة صار فى الإمكان مقارنتها ، وهكذا ظهرت النتائج العلمية ظهوراً واضحاً

فقد كانت طرز الفخار تختلف حسب الارتفاع فقد يصبح أحد الأشكال المنتشر فى طبقة تقع فى مستوى يعلو خمس أقدام من التل نادراً فى الأقدام الخمس التى تليها ومنعدما فى المسافة التى بعدها ؛ ولذا كان فى إمكان الإنسان أن يحدد منطقة بداية هذا النوع من الفخار على بعد سبع أقدام أو ثمان من القمة ، ويفترض أنه استمر منتشراً طالما كانت المدينة مسكونة . وقد يمكن العثور على مقادير لا بأس بها من طراز معين فى إحدى المناطق الأفقية فى حين يختفى هذا الطراز بالمرة فى المنطقتين اللتين تحفان بها من أعلى ومن أسفل ، وبما أن هذا الطراز المعين منحصر فى طبقة ضيقة فلا بد وأن يكون طرازا قصير العمر ، ومن ثم يعوّل عليه كثيراً فى التأريخ لأنه لا يسمح بالخطأ إلا فى أضيق الحدود . حقا لم يعثر فى هذا التل على أدلة تحدد تواريخ معينة لأنه لم تكتشف وثائق مكتوبة ، إلا أنه بعد وقت قصير جداً صار فى إمكان « بترى » أن يعمل رسماً بيانياً منسقاً يحدد فيه لكل نوع من الفخار مكانه المناسب فى مراحل تاريخية متتالية ، وهكذا لأول مرة زودت الآثار الفلسطينية بقاعدة زمنية سليمة .

الفصل الثالث

التنقيب فى مواقع المدن

بدأ التنقيب فى موقع المدينة الذى كنا قد اعتزمنا الحفر فيه بخندق واحد طويل . وسرعان ما تغير مظهره إذ أخذ يمتد يميناً وشمالا أولا فى خنادق ضيقة ثم فى تجاويف مستطيلة على شكل صناديق كثيرة قليلة العمق يفصلها بعضها عن بعض حوائط ضيقة . وهكذا بدأت الآن الخرائب التى ظلت مدفونة مدة طويلة يصير لها شكل ومعنى ؛ وهنا يواجه العالم المنقب عن الآثار بمشاكل جديدة .

فعليه أولا أن يعين تاريخ المبنى ووظيفته ، وفى معظم الاحيان لا يمكن تحديد التاريخ إلا بواسطة الأشياء التى يعثر عليها بين الحوائط ، ومن ثم فإن دقة التأريخ تتوقف على مدى ما يعرف عن عاديات القطر وبخاصة الفخار . ومن الممكن عادة تحديد تاريخ المواقع الرومانية فى حدود ضيقة بعض الشىء ؛ وحتى إذا لم يعثر على النقود التى تستخرج تقريباً فى جميع الاحوال فإن الفخار الوطنى لا تزال دراساته تأتى بنتائج محددة ، كما أن الأوانى من

تراسيجلاتا(١) التى كانت تستورد من جنوب بلاد الغال ومن مصانع الراين تمدنا بمعلومات دقيقة جداً وذلك لأننا نعرف متى كان بعض صناع الفخار يعملون فى حدود عدة سنوات . وفى حين أن الأوانى المنزلية التى ترجع إلى العصر اليونانى الكلاسيكى لم تقسم إلى فترات بطريقة علمية مؤكدة ، إلا أنه من الممكن فى جميع الحالات تقريباً أن نؤرخ قطعة من إناء ذى رسوم حمراء (٢) أو سوداء (٣) ونرجعه إلى عصره فى حدود ثلاثين سنة ، وعلى الرغم من أن مثل هذه الدقة مستحيلة بالنسبة إلى العصر الذى يسبق العصر الكلاسيكى فإننا نقنع فى هذه الحالة بالتقسيم إلى عصور حيث يسهل وصف كل عصر بدقة أكثر ؛ فنحن إذا استطعنا أن

---

(١) Terra sigillata فخار مختوم .

(٢) إناء ذى رسوم حمراء Red-figured vase طراز من الأواني الفخارية اليونانية أخذ يتطور فى القرن السادس قبل الميلاد وفيه كان سطح الإناء كله مغطى بطبقة من الورنيش الأسود اللامع . وفى أول الأمر كانت الخطوط الخارجية التى تعبر عن الأشخاص تحفر ثم أصبح الشكل كله يحفر ، وبذلك كانت أرضية الإناء الحمراء تظهر ؛ وكانت التفاصيل ترسم عليها بواسطة الفرشاة .

(٣) إناء ذو رسوم سوداء Black-figured vase طراز من الأواني الفخارية اليونانية بلغ أوجه فى القرن السادس قبل الميلاد . وفيه كانت الأشخاص ترسم باللون الأسود على أرضية بيضاء تميل إلى الاصفرار . ثم تطور لون الأرضية فصار مشوبا بحمرة نتجت عن إضافة مادة ملونة إلى الطين وكانت الأشخاص ترسم فوقها بلون أسود لامع .

نصف منزلا بأنه يرجع إلى العصر المينوى الأوسط الثالث [١] فنحن فى الحقيقة نذكر عنه كل ما هو أساسى . أما فى فلسطين وسوريا فالاصطلاحات أكثر غموضاً : وفيما عدا جنوب فلسطين حيث تفيد الجعارين وغيرها من الواردات المصرية فى التدليل بشكل أدق لا يزال الفخار المحلِّى يقسم حتى الآن إلى طبقات تشمل قرونا عديدة « كعصر البرونز المتأخر » « وعصر الحديد المبكر » [٢] ؛ ولكن حتى فى هذه الحالة يمكن أن يكون لدينا من الأسس ما تعيننا على إقامة درجات متعددة من التتابع التاريخى .

وتحتوى حوائط المعبد فى العراق القديم فى معظم الأحيان على عدد من اللبنات تسمل نقشاً مكتوبا أو مطبوعا يوضح اسم المعبد والإله الذى دشن من أجله والملك الذى أقيم بأمره أو تكريماً

---

(١) تقسم الحضارة المينوية إلى ثلاثة عصور : عصر مبكر ح سنة ١٨٠٠ ق . م . ، وعصر أوسط وهو عصر الازدهار وقد استمر إلى سنة ١٥٠٠ ق.م. ، وعصر متأخر من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٢٠٠ ق.م . (انظر ص ١١ هامش ٢) .

(٢) تقسم العصور الحضرية إلى العصر الحجرى القديم ثم العصر الحجرى الحديث ثم عصر البرونز ثم عصر الحديد ؛ وكل من هذه العصور يقسم إلى عصور فرعية . ويلاحظ أن أزمنة هذه العصور تختلف باختلاف الأقاليم : فهى مثلا فى مصر والعراق متقدمة عنها فى أوربا ببضعة آلاف من السنين .

له ، وهكذا يزوّدُ العالم المنقب عن الآثار فى هذه الحالة بجميع المعلومات التى يتوقعها . وقد يجد على ارتفاعات مختلفة من الحوائط أو فى أماكن أخرى نقوشاً على اللبن ترجع إلى ملوك مختلفين ، ومعنى هذا أن حاكماً أحدث قد أصلح مبنى سلفه أى أن كل اسم يمكن أن يضيف إلى تاريخ المبنى فصلا جديداً . ولقد كان الملوك العراقيون مغرمين جداً بالإشادة بتدينهم كمؤسسين المعابد ، ومن ثم فان النقش قد لايظهر على طوب البناء فحسب ولكن أيضاً على المخروطات الطينية المخبوءة فى داخل الحائط وعلى الأحجار الكبيرة التى كانت تثبت فى صناديق من الطوب أسفل مستوى الأرضية عند المداخل كأعقاب للأبواب وكذلك على تماثيل النحاس وعلى الألواح الحجرية التى كانت توضع تحت الحوائط كوثائق للتأسيس وهذا يشبه تماماً ماقد نعمله فى العصر الحديث حينما ندفن عينات من نقود الدولة ونسخاً من الجرائد فى صناديق مشابهة . أما فى المعـــابد المصرية فنجد على الحوائط نقوشاً ، كما نجد أسفل أحجار الأركان وثائق التأسيس التى تحوى اسم الملك منقوشاً على لوحات من الذهب والفضة والنحاس الأحمر والحجر والخشب وجميع المواد المستعملة فى بناء المعبد . وقد توجد أدلة من أنواع أخرى . ففى قرقميش[1] كان كل من الحيثيين والأغريق والرومان يقطعون أحجارهم من أماكن مختلفة ومن ثم

(١) أنظر ص ٣٢ هامش ١.

أفاد نوع الأحجار المستعملة فى الحوائط بوجه عام فى التأريخ حتى ظهرت أدلة أكثر دقة . وفى العراق كان شكل الطوب وحجمه يختلفان بحسب العصور اختلافا منتظما إلى حد ما . وهكذا بتسجيل أبعاد الطوب الذى حدد تاريخه صار فى استطاعتنا أن نحصل على مقياس يمكن الاعتماد عليه اعتماداً معقولا فى تحديد عصر المنازل الخاصة والمبانى الأخرى التى لم يرد فيها طوب منقوش . وفى الواقع صار فى إمكاننا بعد فترة من الوقت أن نقدر بمجرد نظرة واحدة تاريخ حائط من الحوائط تقديراً معقولا . وعلى الرغم من أننا فى استطاعتنا أخيراً بفضل نقش من النقوش فى أور [١] أن نحدد سنة ١٩٩٠ ق . م . خاصة فإن الأمل فى التأريخ التام الدقيق بعيد المنال ، على أن عالم الآثار يجب أن يتمكن فى جميع الحالات تقريباً من أن يعين فى حدود معقولة تاريخ أى مبنى يكشفه بواسطة دليل من نوع أو من آخر .

ننتقل الآن إلى وظيفة المبنى نفسها . قد يوضح نقش من النقوش إنه كان معبداً ، ولكن ما نريد معرفته فعلا هو ماذا كان نوع المعبد أو المنزل . وهنا تتضح أهمية التخطيط . وإنى لاتذكر أننى سمعت أحد علماء العاديات من المدرسة القديمة يصرح أن التنقيب فى خرائب مبنى من المبانى فى سبيل الحصول على تخطيطه مضيعة للنقود وذلك لأن التخطيطات لايفهمها أو يهتم بها أحد — وعلى كل حال

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

فمن الواضح أنه لم يفهمها هو كذلك . والواقع أن مهمة عالم الآثار هى بالتحديد أن يفهم التخطيطات ، قد يكون معه مهندس محترف لمساعدته فى أعمال الحفائر ولكن يجب أن يكون هو نفسه إلى حد ما مهندساً ، إذ أن عمله يتصل برسم المبنى على الورق مثل اتصاله بأجزاء حوائط الطوب أو الحجر التى يرسم منها تخطيطه هذا على الورق . والرسم الهندسى يحوى كل ما يكتشفه المنقب من المبنى ، كما يصبح الأساس الذى يعتمد عليه ليتعرف على أجزائه . ولسنا فى حاجة إلى أن نسأل الرجل العادى أن يكون متحمساً لتخطيط مبنى من المبانى القديمة ، ولكن يجب على المحترف أن يحصل بفضل التخطيط على معلومات عن المبنى سوف يجدها الرجل العادى مهمة وممتعة ، فنحن ننقب عن الماضى لا لنعثر على خرائب وأطلال بل لنكشف عما كان فى وقت من الأوقات معبداً أو منزلا ؛ والرسم الهندسى هو أول الأشياء الواضحة التى يجب أن نفوز بها ، إذ بواسطته نتمكن من تفهم أجزاء المبنى الأصلى بعد الاستعانة بجميع الأدلة التى يمكن أن نعثر عليها وجميع المعلومات التى نملكها ؛ حقاً إنه من المستحيل عمل ذلك دائما ولكن عالم الآثار لايعتبر ناجحاً نجاحاً تاماً ما لم يتم له عمل ذلك ، وحتى يصل إلى هذا الهدف عليه أن يلاحظ كل حقيقة مهما كانت دقيقة ومهما بدت له غير مهمة ، وأن يسجلها ، وأن يزنها ، فقد يسهل ذلك من مهمته .

وأول كل شيء عليه أن يعين التخطيط . فقد تكون بعض الحوائط قد اندثرت كلية وبقي خطها موجوداً ولكن من باب الظن فقط ، ومع هذا فيجب أن يبذل كل جهده للحصول على أدلة تؤيد هذا الظن . ولقد حدث أن رسم تخطيط حائط رومانى فى بريطانيا بدقة بعد أن زال تماماً . فلقد كان البناء الرومانى يحفر خندقا لأساساته ويكسو أرضيته بطبقة من الطين تحت أحجاره . وفى هذه الحالة كانت جميع الأحجار قد اختفت ولكن بتتبع غشاء الطين مسافة عدد كبير من الياردات خلال أرض « المرج » عرفت حدود البناء . ومن جهة أخرى قد توجد الحوائط بكثرة فتصير خليطاً لامعنى له فيرجع بعضها إلى إضافات أو إلى تغييرات للبناء الأصلى ولذا علينا أن نستغنى عن هذه الحوائط المضافة عند رسم التخطيط على الورق — مع التسليم بأن لها أهميتها التاريخية — وذلك حتى يتضح قصد البناء الأول . ومن النادر أن يخطىء إنسان التخطيط الأرضى لمعبد من المعابد ويظنه منزلا خاصاً أو حصناً . إذ أن الممرات ومداخل الأبواب والغرف توضح الترتيب العام ، كما أن مسائل الإضاءة ، قد تشير إلى أن « غرفة » ما لابد وأنها كانت فناء غير مسقوف ؛ وقد يشير سمك الحوائط إلى وجود طبقات عليا ؛ وقد يعثر على قواعد بعض الأعمدة ، ومن القوانين العامة المعروفة عن النسبة بين طول العمود وقطره يمكن أن يقدر ارتفاع المبنى ؛ وقد يعثر على حجر مهذب

أو على الخصوص على قالب من الطوب مصبوب بشكل خاص بين الأنقاض يشير إلى مداخل معقودة أو أسقف مقببة . ولقد استطاع « السير أرثر ايفانز » أن يقيم فعلا من جديد فى كريت جزءاً من قصر مينوس [1] إلى الطابق الثانى على الرغم من أن الحوائط التى عثر عليها كانت قائمة فقط لعدة مداميك من الحجر ؛ وقد أسس عمله من جهة على الاستنتاجات المنطقية من التخطيط ، ومن جهة أخرى على الملاحظة الدقيقة لما عثر عليه أثناء التنقيب كملاحظة الارتفاع المضبوط لعتب حجرى بالقرب من سطح التربة وملاحظة موضعه على وجه الدقة ، وكملاحظة الطابع الذى يتركه فى التراب عمود خشبى قد اختفت مادته منذ أمد طويل — وهكذا صار فى استطاعته أن يعيد البناء أمام أنظار الرجل العادى الذى لم يكن من غير شك ليهتم بالتخطيطات الأرضية — إلى وضعه الأصلى حيث كان الملوك المينويون يعيشون عيشتهم الرائعة . وعلى الرغم من أنى قد أتهم بالأنانية سأعطى مثالا مطولا لما قد يفيده التخطيط الأرضى فى تكوين التصور الجديد لمبنى من المبانى القديمة المندثرة .

كنا نقوم بالتنقيب فى تل العمارنة فى مصر وهو موقع المدينة

---

(١) أنظر ص ١١ هامش ٢ ، ص ١٥ هامش ١

التى بناها الملك الضال اخناتون (١) ذلك الملك الذى حاول فى القرن الرابع عشر قبل المسيح أن يفرض الوحدانية على قوم تعددت آلهتهم . وقمنا بزيارة بقعة فى الطرف الجنوبى للدينة حيث شاهدنا فيها قطعاً من الأحجار المهذبة مبعثرة فوق الرمال فى مساحة مربعة متسعة بعض الاتساع داخل منطقة كبيرة يحف بها حائط . ومما شاهدناه فى ذلك المكان كتلتان من أحجار الأعمدة وحجراً أو حجران من أحجار البناء فيهما نتوء بارز على سطحين ، بينما كانت جميع المخلفات الباقية تقريباً لا تعدو قطعاً وشظايا من كتل منحوتة كانت قد تحللت بشكل لا يدعو إلى الأمل . وكان من الواضح أن المعبد « الهرطقى »(٢) قد استعمل فيما بعد كمحجر فهدمت حوائطه وطمست زخارفه ونقلت أنقاضه لتستخدم فى مكان آخر . ولم يكن هذا الموقع فى مظهره يؤمل منه خير ولكننى قررت أن أنقب فيه عسى أن يكون قد ترك فيه شىء يمكن الحصول عليه . وسرعان ماظهرت النتائج ، ولم يكن هناك مايمكن أن يكون فى مظهره أدعى إلى اليأس . كان كل شىء بالقرب من السطح ، فعلى عمق ست بوصات تحت شظايا أحجار البناء مباشرة امتدت طبقة مسطحة مستطيلة من الملاط سمكها قدم أو نحو ذلك ، وكانت

---

(١) أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى مصر القديمة ، وقد حاول أن يفرض على المصريين الوحدانية ممثلة فى عبادة قرص الشمس « أتون » .

(٢) Heretic

مفروشة فوق رمال الصحراء غير المسطحة كأساس للمعبد ؛
ولايمكن أن يكون تحتها شيء ، وجميع ماكان فوقها كنا قد شاهدناه
قبل أن نبدأ الحفر ، وهكذا لم يبق من المعبد حجر واحد فى
موضعه ، ومن المستبعد أن تُرك حجر فى الموقع نفسه . ولقد كانت
كتل الأحجار المستخدمة فى بناء الحوائط وتلك التى تكون
الأرضية غائرة فى طبقة ملاطية تعلو تلك التى يتكون منها الأساس
وحينما انتزعت الكتل الحجرية من مكانها حدث بصفة عامة أن
الطبقة الملاطية بقيت ملتصقة بالأرض ومحتفظة فى سطحها العلوى
بطابع الحجر ؛ ولقد كان فى إمكاننا أن نعد الأحجار التى لم تكن
هناك بل أن نرى علامات الآلات فوقها ؛ وبعد أن فحصتها بعناية
اعتقدت أنه ربما كان من الممكن أن نميز بين الكتل التى كانت
موضوعة فى صفوف لتكوّن الحوائط وتلك التى كانت لرصف
الغرف ، ولذا كلفت العمال بأن ينظفوا السطح كله بالمكانس .
وبينما كنت أفحص الموقع مع « مستر نيوتن » محاولا أن أقرر
ماإذا كان من اللازم القيام برسم تخطيط يمثل مواضع الكتل
شاهدنا شيئاً فريداً فى نوعه .

كانت طبقة الملاط فى بعض الأماكن قد نزعت مع الحجر
تاركة تلك التى يتكون منها الأساس خالية ، وهنا وهناك على
الوجه النظيف شاهدنا علامات حمراء ضعيفة كانت تمتد على

طول الخطوط التى تشمل الطابع الذى خلفه نزع الأحجار من الملاط والتى كنا نفترض أنها مواضع كتل الحوائط الحجرية . وكان تفسير ذلك واضحا . حينما كانت الطبقة الملاطية للأساس قد جفت رسم البناءون عليها تخطيط المهندس وذلك بأن مدوا شريطاً مغموساً فى طلاء أحمر على طول خطوط الحوائط المزمع بناؤها ، وبرفع وسط الشريط وضرب الأرضية الملاطيـــة به من جديد نتج عن ذلك أن طبع خط أحمر مستقيم كأنه مرسوم بمسطرة ، ثم وضع البناء أحجار حائطه بين كل خطين من هذا النوع . ولم نكن فى حاجة قصوى لاستخدام خيالنا فقد أصبح التخطيط الفعلى مرسوماً أمامنا بيد المهندس المصرى نفسه . وبعد أن نقلنا ذلك على الورق صار فى إمكاننا أن نتقدم إلى الجزء التالى من مهمتنا . وهو التعرف على مظهر البناء نفسه . كان سمك الحوائط يختلف بشكل كبير وكان عدد كبير من قطع الأحجار يحمل على الجانبين نحتا بارزا ولذلك لابد وأنه كان يمتد بعرض الحائط من سطح إلى سطح . ولم تكن جميعها بنفس الطول ولقد قمنا بجمع كل القطع من هذا النوع وقياسها ثم عينا لبعضها مواضعها من الحوائط الظاهرة على التخطيط بحسب السمك .

والآن كان لدى نحاتى المعابد فى عصر إخناتون مقدار محدود من الموضوعات ومن ثم كانت المناظر المنحوتة على

حوائط المعبد تتكرر على وتيرة واحدة ؛ وعلى الرغم من أنه كان لدينا فقط عدة قطع صغيرة تمثل أوجه الحوائط كان من السهل بواسطة تمييز الموضوع ومشاهدة مايماثله فى المبانى المحفوظة حفظاً أحسن — أن نرسم على الورق الزخرفة الكاملة لكل حائط . وكانت كتلتان من أحجار الأعمدة من أحجام وطرز مختلفة موضوعتين على السطح ، وقد أظهر التخطيط أنه قد استخدمت أعمدة من حجمين مختلفين فكان فى إمكاننا أن نضع أحجار أعمدتنا فى أمكنتها ، وبما أن نسب الأعمدة المصرية منتظمة إلى حد ما كان من الممكن أن نقرر طول العمودين وبالتالى ارتفاع المبنى . وبواسطة عدة قطع من الإفريز العلوى انتقلنا إلى خط السطح ، ثم أكملت عتبة منحوتة تصورنا للباب الرئيسى ؛ وهكذا كان فى إمكاننا أن نعيده — بكل دقة وتفصيل — تكوين معبد لم يبق منه حجر واحد فى مكانه ، وكل ماتبقى من أحجاره — فيما عدا حجرين أو ثلاثة قد تحطم إلى ذرات . ولقد صادف أن كان ذلك المعبد معبداً من طراز جديد أمدنا بوثيقة ثمينة لتاريخ العمارة المصرية . وربما قد أفادتنا ملاحظة صغيرة واحدة أعظم إفادة . فقد كانت الطبقة الملاطية المكونة للأساس أكبر كثيراً من مساحة المبنى ، وقد شاهدنا فيما حوله من جميع الجهات خارج الحوائط فجوات مستديرة عرضها حوالى ٦ بوصات كانت قد اخترقت الطبقة الملاطية — حينما كانت لاتزال لينة — إلى داخل رمال الصحراء تحتها ؛ وقد

حيرنا هذا بعض الوقت . وبالفحص الدقيق وجدت فى واحدة منها آثار خشب متحلل وبهـذا حل اللغز : فدائماً مانشاهد فى الصور التى لدينا عن المعابد المصرية أنه على طول جوانبها تقوم صوار تخفق من أعلاها الأعلام المستطيلة . وهنا فى هذا المعبد — وهذه هى الحالة الوحيدة فى مصر كلها — وجدت أدلة من هذا النوع حيث عثرنا على القواعد الفعلية لصوارى الأعلام ؛ ولقد كان فى إمكاننا أن نعين فى رسمنا بالقيـــاس الدقيق حتى تلك التفاصيل .

سبق أن وصفت فى مكان آخر سير الملاحظة والاستنتاج اللذين بفضلهما استطعنا أن نصل إلى المظهر الأصلى لأحد المنازل الخصوصية فى أور [١] فى زمن ابراهيم الخليل . وأعتقد أن كلامنا يشعر بالأهمية الحقيقية للنتيجة التى وصلنا إليها فى تلك الحالة ذلك لأنها تمدنا بصورة جديدة لم تكن متوقعة للوسط الذى كان يعيش فيه شخصية معروفة وتدفعنا إلى أن نراجع حكمنا عنها ، وهذه حالة واضحة جداً لأننا اعتدنا أن نتخيل ابراهيم رجلا بسيطاً يسكن الخيام ثم ها نحن نراه فى إمكانه أن يقطن فى منزل متحضر من الطوب فى مدينة من المدن ؛ ولكن للمسألة أوجه أخرى أكثر من ذلك : فطراز البناء لاينشأ فجأة أو مصادفة ، ولكن

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

ينمو نمواً طبيعياً متجاوباً مع ظروف الحياة، ولذلك كان المبنى القديم مهما لا لمجرد أنه يوضح تاريخ العمارة، ولكن باعتباره مقراً لحياة الرجال والنساء وأسلوبا من أساليبهم الرئيسية للتعبير عن أنفسهم؛ فإن لم نعرف فى أى وسط كان النـــاس يتحركون ويعيشون فلن نفهم إلا القليل جداً من استجاباتهم للحياة. وبطبيعة الحال ليس تأثير المبنى على الإنسان بالشىء الملموس، ولكنه حقيقى جداً من حيث أنه يبلور التقاليد السابقة؛ ولو أنه لايترجمها ترجمة مباشرة إلى الطوب والملاط. وفى إمكاننا أن نتصور أن قاطن أحد منازل أور قد ورث فعلا الروح التى كانت قد تشكلت ونمت منذ عصر الإنتاج الرائع فى الحضارة والفن ولكننا لانستنتج ذلك من مجرد وجود مداخل معقودة أو أفنية ذات أروقة بل من الحقيقة الواقعة بأن مثل ذلك ينحدر من غير انقطاع من المقابر الملكية التى ترجع إلى ١٥٠٠ سنة من قبل. وفهم عوامل البيئة يعتبر عندنا أشد ضرورة من التعرف على تصميم لمنزل يسكنه فرد من الأفراد، ولكن الحقيقى على كل حال أن الخرائب الفعلية قد تزودنا — فضلا عن التصور المعمارى للمبنى القديم — بعنصر خاص نستطيع أن نترجمه بأساليب الفكر البشرى.

وفى الوقت الذى كنا قد اكتشفنا فيه عدداً من المنازل

الخاصة من عصر ابراهيم صار من الواضح أنه بالرغم من عدم وجود منزلين متشابهين تماماً — كان هناك أسلوب عام يجمع بينها ، فقد كانت جميعها تعديلات لفكرة عامة واحدة ، ولذلك ساعد كل منها على تفسير الآخر وكان فى إمكاننا أن نقارن بينها وأن نتعرف لذلك على الغرف المفردة فى كل منها : فهذا هو المطبخ ، وهذه غرفة الاستقبال ، وهذه دورة المياه وهكذا ؛ وفى عدد من المنازل ، وليس كلها ، وجدت غرفة معينة كانت تتمثل فيها دائماً معالم واحدة — قبو للدفن فى أسفل الأرضية ، ورصيف مرتفع عند الطرف البعيد عن الباب أقيم عليه بناء من الطوب ربما كان يمثل مذبحاً أو مقعداً ، ومشكاة فى الجدار الخلفى ، وعامود مربع من الطوب ؛ وحينما أمكننا أن نوضح أن هذه الغرفة كانت غرفة خاصة للعبادة وأن الساكن العادى فى هذا العصر كان له غرفة خاصة فى منزله يفردها للعبادة المنزلية فقد عرفنا فى الحقيقة شيئاً لم يسبق أن أشارت إليه الكتابات ولم يكن فى استطاعتنا أن نتصوره بتاتاً .

وفى بعض الأحيان يمدنا المبنى بصورة حية جداً عن الحياة الماضية : ففى العمارنة [1] ، مثلا اكتشفنا قرية نموذجية أقيمت

---

(١) مدينة تل العمارنة هى التى أنشأها الملك اخناتون على الضفة الشرقية من النيل شمالى أسيوط حينما تحول عن عبادة آمون (أنظر ص ٦٣ هامش ١)

خصيصاً للعمال الذين كانوا يحفرون المقابر المقطوعة فى الصخر التى أنشئت للطبقات الأرستقراطية فى العاصمة ؛ وكانت هذه القرية قد بنيت جميعها على تخطيط واحد ثم هجرت حينما عاد البلاط المصرى ثانية إلى طيبة ، وانتفت الحاجة إلى عمل القبور فى ذلك المكان . وكانت القرية النموذجية تشغل مكاناً مربعاً يحيط به سور ويمتد فيه جميعه صفوف من منازل صغيرة بينها شوارع ضيقة ، وفيما عدا الأحياء الخاصة بملاحظى العمال بالقرب من البوابة كانت جميع المنازل متشابهة وعلى وتيرة واحدة . فكان لكل منها فى المقدمة ردهة بها مطبخ ، وفى المؤخرة غرف النوم وخزانة الملابس ، أى على نمط نظام المساكن العمالية المصممة بشكل آلى . وكان هذا فى حد ذاته يوضح جانباً ممتعاً من الحياة الاجتماعية فى مصر فى القرن الرابع عشر قبل المسيح ، كما أضاف الكثير إلى المعلومات التى أمدنا بها موقع العاصمة نفسها بخصوص قصور موظفى الحكومة ومنازل الطبقة المتوسطة . ولكنها هى التفاصيل التى نفخت فى الأثر الحياة : ففى أحد أبواب الواجهة بنى مذود من الحجر والطين ، وفى جانبه عمل ثقب مربع ثبتت بعرضه عصاً ربط حولها حبل من الليف كان يقيد فيه الحمار منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة ، وكان هذا الحبل لايزال ممتداً بعرض الشارع حينما اكتشفت القرية . كما عثر فى داخل المنازل على صور بسيطة تزين الحوائط الطينية

وتوضح المجهودات الشخصية التى كان العامل يبذلها فى سبيل تحسين مسكنه أو التعبير عن تدينه ؛ وفضلا عن ذلك فإن الأحجبة والتعاويذ التى التقطت من أرضية الغرف أظهرت أشد الآلهة المصرية العديدة حظوة عند العمال فى مصر ؛ كما أمدتنا الآلات والأدوات المبعثرة بمعلومات عن عمل كل منهم أو هواياته فى ساعات الفراغ. وقد أوضح منزل من المنازل — وإن كان بأسلوب هزلى — أخلاق صاحبه : ففى حين كانت كل المنازل المجاورة فى الصف تفتح على الشارع الذى يجرى إلى الشرق كان هذا على العكس يفتح على حارة خلفية كان يحدها حائط من غير فتحات فيما عدا ذلك الباب . وقد بدا لنا هذا الاستثناء غريباً مما جعلنا نتأمل البناء عن كثب ، وحينئذ اكتشفنا أن المنزل حينما بنى فى أول الأمر كان كباقى المنازل يفتح على الشارع الشرقى ولكنه عدل بعد ذلك فقسمت الردهة الأمامية إلى غرف للنوم وحولت غرف النوم القديمة إلى غرفة واحدة فتح فى حائطها الخلفى مدخل ، ومن ثم أمكننا أن نتصور المالك الذى كان قد تخاصم مع جيرانه حتى أنه كره مجرد رؤيتهم ، ولكنه مع هذا لم يكن فى استطاعته أن يخرج من منزله من غير أن يقابل بعضهم ؛ وبما أنه لم يكن يمتاز إلا قليلا عن عامل مرتبط بعمله فلا يستطيع أن ينتقل إلى مكان آخر حتى يتجنب رفقتهم فقد اهتدى أخيراً فى يأس إلى أن يغير اتجاه منزله بعد أن عجز عن تغيير مكانه : فسد المدخل الأمامى بحائط ، وفتح باباً جديداً فى الخلف . ويمكننا أن نتخيل الراحة

التى كان يحس بها حينما كان ينطلق وحده فى الحارة الخالية حيث لم يكن معرضاً لمقابلة أحد من أعدائه .

قد يعترض على ذلك بأن تلك القصة ذات مدلول تافه وفعلا هى كذلك ؛ فمن الطبيعى أنه لايهم بالمرة إذا كان عدد من العمال يعيشون معا على غير وفاق منذ ثلاثة وثلاثين قرنا ، ؟ ولكن ليس ذلك موضع الأهمية . بل المهم أن الخرائب قد تحتفظ بتسجيل أمثال هذه التوافه لمن يستطيع أن يقرأ أدلتها ، ؟ فإذا كان عالم الآثار معنياً بحق بالملاحظة والتسجيل كان من الممكن أن يكافأ بحقائق تاريخية أهم كثيراً من ذلك . والحق إن عالم الآثار ليست مهمته أن يعرف فقط وظيفة البناء الذى يكتشفه ومنظره قبل أن يردم ، ولكن عليه أن يتعرف على صروف الدهر التى مر بها ، فقد تكون هذه الأحداث صدى لظروف أسرة من الأسر أو حتى شعب من الشعوب . ولنفرض أن تاريخ انجلترا قد نسى منه مدى ألف سنة من الآن ، ولندن خرائب مدفونة ، ثم اكتشف منقب سعيد الحظ موقع وستمنستر أبى [1] فنى استطاعته بفضل ما بقى من بنائها وآثارها أن يكتب من جديد فصولا كاملة عن الماضى وأن يستعيد نصف الأسماء

---

(١) Westminster Abbey كنيسة كبيرة فى لندن يدفن فيها كبراء الإنجليز .

العظيمة والحوادث المهمة فى التاريخ الإنجليزى . ولا يستطيع عالم الآثار أن يأمل فى حظ سعيد مثل هذا ، ولكن قد يكون فى إمكانه أن يعرف الكثير من أنقاض أحد المبانى العادية جداً إذ أن الأهمية فيه تمتد إلى ما وراء المبنى المجرد الذى اكتشفه ؛ فى إمكانه أن يربط بين الشهود الخرساء من الطوب والملاط والمخلفات التى يمكن انقاذها وبين حياة الناس . وهذا جزء ضرورى جداً من مهمة عالم الآثار بحيث أنه لا بأس من ضرب مثل تفصيلى لتوضيح طريقة السير فيه . كان معبد الهة القمر فى أور [١] فى أصله مبنياً من اللبن على يد « بور — سن [٢] » ملك أور منذ نحو سنة ٢٢٢٠ ق م . ، وبعد قرن أعيد بناؤه بالطوب المحروق ، ثم بعد فترة من الزمن هدم بواسطة النيران . تلك هى الحقائق المجردة تماماً .

كان مبنى « بور — سن » متيناً إلى أقصى درجة ، وربما كان يعيش مدة أطول كثيراً مما عاش فعلا ؛ أما وأنه قد أعيد بناؤه بهذه السرعة من أسفله إلى أعلاه فلا بد وأن ذلك راجع إلى

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

(٢) أحد ملوك أسرة « إيسن » من العموريين الذين خلفوا السلالة الثالثة فى أور فى حكم العراق .

هدمه على يد العيلاميين [١] الذين قضوا على حكم أسره «بور - سن» وخربوا مدينة أور . ولقد احتوت الحوائط الجديدة على طوب محروق عليه طابع باسم المؤسس الثانى وهو الكاهن « اين أناتم » ابن آخر ملوك « ايسن » [٢] . والواقع أنه بعد غزو العيلاميين انتقلت السيطرة على العراق من أور إلى سلسة من الملوك جعلوا من مدينة « ايسن » عاصمة الدولة وصارت أور فى مرتبة رعية من رعاياهم ؛ ولا بد أن أور كانت مفضلة لديهم بحيث أن ابن الملك عين كاهنا فيها كما كانت غنية بحيث كان فى الإمكان أن يعاد بناء المعبد المخرب على مقياس أكبر من حيث التكاليف ، وقد نستنتج من ذلك أن أور كانت تمر خلال مرحلة انتعاش متوسط . ولكن

---

(١) العيلاميون شعب كان يسكن مدينة سوسه فى جنوب غرب إيران . وقد استطاع فيما بين سنه ٢٢٦٤؟ سنة ٢٠٩٥ق . م . أن يفرض سيادته على مدينة لارسا فى العراق ومنها على باقى العراق .

(٢) كان الشعب العراقى فى الألف الثالث قبل الميلاد يعيش فى عدة مدن محصنة تكون كل منها ولاية مستقلة على رأسها حاكم أو أمير . وكانت الحروب مستمرة بين هؤلاء الولاة بسبب مياه الرى ؛ وفى معظم الأحيان كانت السلطة تتركز فى يد أحدهم، فكان يفرض على باقى الولايات نوعا من الحماية . ومن أهم هذه الولايات أرك وأور وكيش ولكش وأريدو وأيسن ولارسا ؛ وهكذا نلاحظ أن هذه المدن كانت تظهر فيها على التوالى أسر ملكية تحكم جميع العراق وإن كان بنجاح متفاوت .

« اين اناتم » بدلا من أن يدشن معبده الجديد باسم والده الملك دشنه باسم ملك آخر كان يحكم مدينة أخرى هى « لارسا » وكان هذا الملك ينافس والد « اين اناتم » وقد استطاع أخيراً أن يغتصب منه السلطة على الدولة وأن يؤسس بذلك أسرة جديدة من الملوك العراقيين . فإذا حول الكاهن طاعته على هذا النحو بينما لايزال يفخر بمولده الملكى يجب أن نفترض أن سيطرة « لارسا » على « ايسن » قد تمت ببطء وعن طريق وسائل سلمية إلى حد ما ؛ وهذا يتضمن بالتأكيد أن أور قد أذعنت عن طيب خاطر لتغيير السادة وظلت فى سلام .

ولقد عثر فى الأنقاض على ألواح طينية مبعثرة ذكرت تواريخها المكتوبة فى الواقع جميع ملوك لارسا بالتتابع — وهذه عبارة عن وثائق مصلحية تتكلم عن حياة هادئة . ولكن عثر فى الفناء فوق قاعدة صلبة من الطوب وحولها على شظايا مبعثرة من حجر أسود عبارة عن قطع من أثر ضخم يحمل نقشا بلغتين هما لغة الجنوب السومرية ولغة بابل والشمال السامية ؛ وقد كان ذلك أثراً أقامه حمورابى[1] ذلك

---

(١) أحد ملوك الحموريين وهم جماعات سامية ينتسب اليهم إبراهيم الخليل والعبريون المتأخرون ؛ وكانوا قد نزلوا شمال الدولة الأكدية فى العراق ، واستوطنوا مدينة بابل التى كانت حينئذ مدينة صغيرة ، ثم اتخذوها عاصمة ملكهم حتى سنة ٢٢٢٥ ق .م ؛ وأخيراً استطاع حمورابي حوالى سنة ٢١٠٠ ق .م أن يفرض سيادته على بلاد العراق كلها وأن يشيد إمبراطورية تتركز سيادتها فى مدينة بابل . ويستشف من دستور حمورابي الذى وصلنا أن الأمور المالية والاجتماعية كانت منظمة فى عهده تنظيما راقياً . (أنظر ص ٢٣ هامش ١)

الفاتح والمقنن العظيم يسجل عليه مآثره (وربما كان — حسب اعتقادنا — « أمرافل » الذى تغلب ابراهيم على غزاته بالقرب من البحر الميت) .

ولقد فتح حمورابى لارسا وجعل بابل مسيطرة على القطر كله ، وخضعت له اور ، وفى هذا المعبد الذى نحن بصدده أقام الفاتح المنتصر نصبه التذكارى الحربى . وذلك هو النصب الذى حطم إلى ذرات . وكان الرصيف من الطوب فى داخل المعبد مغطى بطبقة سميكة من خشب تحول نتيجة الحريق إلى فحم ورماد ؛ وقد اختلط بذلك الفحم والرماد مئات من قطع آنية من الحجر بعضها يحمل نقوش نذور بأسماء ملوك كانوا يعتبرون قدامى فى زمن حمورابى ، وتماثيل مكسرة وبعدد أكبر من ألواح من أرشيف المعبد ؛ ولقد نهب المعبد كما حرق . وكانت التواريخ على المجموعات الجديدة ترجع بنا خلال حكم حمورابى ثم تتقدم بنا إلى السنة الحادية عشرة من حكم ابنه ثم تقف عند ذلك . والآن كانت السنة الحادية عشرة تسمى « تلك التى ثار فيها القطر الجنوبى » والسنة الثانية عشرة « تلك التى خرب فيها الملك حوائط اور » . تلكما العبارتان تذكران كل مانعرفه عن تاريخ ذلك الوقت ، والآن فلنضعهما الى جانب الأدلة التى كشفها التنقيب فتتضح القصة . خضعت أور بهدوء لحمورابى ، ولكنها انضمت إلى الثورة ضد

ابنه إن لم تكن صاحبة القيادة فيها ، وأشهر أهلها ثورتهم بأن طمسوا النصب التذكارى الحربى لبابل . وفى بحر عدة أشهر — وقبل أن تزال الحجارة المبعثرة التى كانت ترمز إلى الاستقلال من فناء معبد الهة القمر — اقتحمت الجيوش الشمالية أسوار أور ، ولم يكتفوا بتخريب حصونها ، بل نهبوا معابدها وسرقوا بيوت أموالها ، واغتصبوا المعدن الثمين ، كما حطموا الأرصفة التى لم تكن تستحق الاغتصاب ، ثم ختموا أعمالهم بأن أشعلوا النار فى المعبد وفى كل الحى الذى كان يقوم فيه . ولم يكن فى إمكاننا فقط أن نحصل من الأنقاض على قصة مفصلة ومؤرخة عن تأسيس المبنى وتهديمه ولكن أمكننا أيضاً أن نرى فيه ملخص تاريخ المدينة فى مدى ٣٠٠ سنة .

اخترت هذا المثل بصفة خاصة لأن الحقائق الرئيسية فيه كانت معروفة من قبل ، وكان من الواجب أن تستخلص نتائج التنقيبات الأثرية مستقلة ثم تربط بالتواريخ المكتوبة ، وفى إمكانك أن ترى كيف كان فى استطاعتنا أن نتحقق من صحة كل نقطة عن طريق أدلة خارجية . ولكن فى معظم الأحيان تنعدم التواريخ المسجلة ، ويحال عالم الآثار إلى مصادره هو وحده فقط ، وليس من الضرورى أن تكون استنتاجاته غير قابلة للمناقشة ؛ ولكن أرجو أن أكون

قد أوضحت أنها إن كانت قائمة منطقيا على الشواهد فليس هناك مايمنع من أن تكون تاريخا صحيحا .

لنفرض أنه يقوم بحفائره فى تل من التلال حيث تقوم بقايا الأبنية بعضها فوق بعض فى طبقات محددة إلى حد ما ، ولكنها ترجع كلها إلى عصر أو إلى ثقافة لم يرد عنها تاريخ مكتوب ، فما نوع الدليل الذى يعثر عليه ؛ قد نسلم أن هناك مادة توضح حياة قوم منسيين ، ولكن كيف يمكنه أن يحصل على معلومات عن الحوادث التاريخية من النوع الذى قد تحدثنا عنه أسفار المؤرخين ؟

هنا يجب أن يستخدم علم الآثار المقارن . لنفرض أن أسفل طبقات التل ترجع إلى العصر الحجرى الجديد[1] ولايستخرج منها إلاالقليل من الأشياء . فيما عدا أدوات من الحجر وشقافات من الفخار البسيط المصنوع باليد ، وحتى فى هذه الحالة من المحتمل وجود بعض علاقات مع مواقع أخرى ، وفى إمكان عالم الآثار أن يقرر إلى أى فرع من الحضارة يجب أن ينتمى أقدم السكان .

وعند ماتعلو المستويات يحل المعدن محل الحجر ، وقد تظهر

---

(١) أنظر ص ٥٧ هامش ٢

الأدوات والأسلحة من النحاس الأحمر فجأة فى طبقة مخصوصة ولكن فى أشكال متقدمة مما يشير إلى أنها ليست من صناعة مبتدئين ولكن من عمل صناع ذوى خبرة باستخدام المعدن ؛ نبحث فى مكان آخر وفى بعض أقطار أخرى فنجد أشكال الأسلحة والآلات نفسها ، ولكننا نستطيع هنا أن نتتبع تطورها من أشياء أبسط وربما أصول من الحجر ؛ وإذن يتضح أنها ليست منتجة محليا فى موقعنا ، ولكنها مستوردة من الخارج . وأثناء حدوث التغير المفاجىء من حجر إلى معدن يوضح الفخار تطورا متسقا تماما ؛ وصناعة الفخار فى أساسها صناعة محلية فإذا كان الفخار غير متأثر يمكننا أن نقرر أن السكان لم يتغيروا ، وأن إدخال المعدن كان راجعا إلى تدخل سلمى أو تجارة . ولكن لنفرض أن المنقب يصادف « طبقة محروقة » . قد تنتج رقعة من الرماد من مجرد حادثة ، ومن ثم تصبح لامغزى لها ، ولكن الرماد الذى يمتد فوق الجزء الأكبر من موقع من المواقع ، ويصحبه علامات حريق على الحوائط ينبىء عن تخريب المدينة . وإذا افترضنا ظهور أشكال جديدة من الفخار فى الطبقة التى تعلو الرماد لاصلة لها بما سبق من قبل فإن هذا يشير إلى تأثير أجنبى ؛ وإذا ربط بين هذا الدليل وبين دليل التخريب دل ذلك على غزو أجنبى ، وإذا أمكن تتبع الفخار الجديد صار من الممكن التعرف على الغزاة . وقد

توجد — بدلا من رماد النار — طبقة من رمال ذرتها الرياح أو طبقة من الطين مرتبة بنظام طبقة فوق طبقة تكونت نتيجة لعواصف الأمطار التى كانت تسبب سقوط التراب والطوب المتحلل الذى كان يردم الفجوات التى يتجمع فيها الماء ؛ وهذه تشير إلى الهجرة عن الموقع ، وقد تقدم معلومات عن تغيير السكان .

فنى التلال أو الآكمات فى جنوب فلسطين نستدل على بعض مواطن السكان من عصر البرونز المبكر بحوائطها البسيطة وفخارها المحلى ، بينما كانت الأنواع الجديدة من الأسلحة والجعارين والخرز المطلية بطبقة من المينا والجدران الأكثر صلابة المنتشرة فى الطبقة التى تعلوها تدل على غزو المصريين للشام . وإلى أعلى من ذلك أيضاً يشير الظهور المفاجىء للأسلحة الحديدية ولنوع من الفخار الملون — متميز جداً ولا يشبه أى شىء عرف فى القطر من قبل ولكنه ذو صلة قريبة بالأوانى الموجودة فى آسيا الصغرى — إلى غزو الفلسطينيين[١] ؛ ونتخيل «جولياث»[٢] بدرعه الحديد

---

(١) الفلسطينيون Philistines شعب غزا فلسطين فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد . ويختلف العلماء بخصوص أصلهم فالبعض يرجعهم إلى موطن أصلى يقع فى بلاد كبدوشيا غرب الأناضول ، والبعض الآخر يؤكد أنهم من جزر الأرخبيل ، وربما كانوا من كريت .

(٢) Goliath

«والتشاليبيين»[1] الذين ذكرهم هومر[2] ، وسمع أنهم كانوا يذكرون كشعب من آسيا الصغرى وقد اشتهروا بأنهم كانوا أول من استعمل الحديد .

وفى بعض الأحيان توجد الصلة ولكن يتحتم تعليلها . فمثلا نلاحظ استعمال الأختام الأسطوانية فى مصر فى عصر الأسرة الأولى أى نحو سنة ٣٣٠٠ ق . م . وهى أسطوانات صغيرة من حجر أو صدف منحوتة وكانت تدور على الطين على سبيل التوقيع وقد استعملت أختام مشابهة تماماً فى العراق[3] . والختم الأسطوانى نوع غريب ليس من المحتمل أن يخترع على حدة فى قطرين مختلفين ، إذن أى قطر يدين للآخر به ؟ فى مصر يظهر الختم الأسطوانى فجأة ثم يختفى أو يكاد بعد مضى فترة ليست بالطويلة ، بينما فى العراق بقى الطراز السائد مدة تزيد عن ٢٠٠٠ سنة . وفى العراق كانت مادة الكتابة الطبيعية والتقليدية هى الطمى الذى ينطبع فيه الختم انطباعا جيداً ، أما فى مصر فالمادة هى

---

(١) Chalybes

(٢) أنظر ص ١٣ هامش ١

(٣) بلغ من ذيوعها فى العراق أن ذكر هيرودوت أنها كانت كالعصا يحملها كل شخص تقريباً .

ورق البردى الذى من المستحيل أن يطبع عليه ختم بواسطة التدوير ، وهكذا من غير المعقول أن يخترع قوم يستعملون الورق ختما أسطوانيا . من الواضح إذن أن هذه الأختام أصلها العراق ، والمصريون مدينون بها عن طريق مباشر أو غير مباشر لوادى الفرات .

وفى بعض الأحيان لاتتضح حلقة الوصل بالمرة . ففى أحد فصول الشتاء فى اور[1] وجدنا على عمق كبير أسفل الجبانة الملكية مجموعة من القبور من نوع لم نشاهده بتاتا من قبل ومخالف تماماً عن قبور الجبانة الملكية . وكان الجسد فيها موضوعا وضعا لامثيل له فى الأزمنة الأحدث ، وكانت أشكال الفخار وأشكال الأوانى الحجرية جديدة علينا ، بينما تميزت المدافن بوجود أقداح مصنوعة من الرصاص ، وهو معدن كان من النادر استعماله فى الجبانة الملكية . والآن عثر منذ سنوات فى مكان يسمى جمدة نصر[2] يبعد عن أور حوالى ٢٠٠ ميل إلى الشمال على آنية عجيبة من الطين ذات

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١ .

(٢) يطلق اسم حضارة جمدة نصر على آخر نوع من الحضارات العراقية القديمة التى ترجع إلى ما قبل التاريخ وهى تلى حضارة أورك . (أنظر ص ٤٧ هامش ١)

رسوم بألوان حمراء وسوداء وبرتقالية ومعها ألواح من الطين منقوشة بأقدم الكتابات المعروفة فى العراق وهى كتابة بالصور لا بالعلامات المحورة . وقد وجدنا حديثا فى حفرة عميقة فى أور قطعا من هذه الآنية الملونة بالإضافة إلى عدة قطع صغيرة من فخار أحمر خال من الرسوم من نوع لم يوجد فى جمدة نصر ولم يعرف فيما عدا ذلك فى أور . ومما عثر عليه فى ذلك الشتاء فى قبر من قبورنا الجديدة إناء أحمر . كنت بطبيعة الحال قد كونت رأيى بخصوص تاريخ جمدة نصر وبخصوص تاريخ القبور وكان التاريخان فيما يبدو متفقين ، ولكن الإناء الأحمر جاء دليلا آخر . فقد كنت أعتقد أنه على الرغم من أنه لم يعثر فى هذه القبور أو بالقرب منها على أية قطعة من فخار جمدة نصر الملون ولا من كتابتها المصورة فإنها كانت من غير شك ترجع إلى تاريخ جمدة نصر نفسه . وبعد أن رجعنا إلى لندن بدأنا فى تنظيف إناء كان قد استخرج من قبر من هذه القبور ، وكان مغلفا بطبقة سميكة من التراب والأملاح كانت تغطى جميع السطح بحيث لم يكن يرى منه شىء . وبعد أن أزيل الغشاء ظهرت للعيان زخارف هندسية مرسومة بالألوان السوداء والحمراء والبرتقالية من نوع زخارف آنية جمدة نصر الأصلية .

وهكذا كانت حلقة الصلة التى اعتمدت عليها غير مباشرة ، غير أننى وصلت إلى نتائج صحيحة بفضل الأسلوب المقارن .

تكلمت عن تاريخ جمدة نصر ، وكان هذا التعبير غامضاً وربما كان من الواجب على أن أعود إليه حتى لا يمر دون تحذير . فى إمكان عالم الآثار أن يبعث من جديد حقبات عديدة من التاريخ البشرى ، وفى إمكانه أن يشهد تقلبات التاريخ وأن يتتبع تقدم الحضارة ، وأن يحدد حياة مدينة من المدن أو شعب من الشعوب بعصور مرتبة فى توال تاريخى صحيح . ولكن فى حالة انعدام السجلات المكتوبة لا يمكنه أن يحدد التواريخ . ونحن دائما نتساءل « متى وقعت هذه الحادثة أو تلك » قد نعرف معرفة جيدة فى أية مرحلة من مراحل التطور الزمنى حدثت ، ولكننا لانستطيع أن نعبر عن أجابتنا بمصطلح السنين ، فليس هناك طريقة تجريبية للحصول على معرفة كهذه . فلا يخضع ترتيب الطبقات فى التربة فى موقع من المواقع القديمة لنسبة رياضية . فإذا كان مثلا كل من الأقدام الثلاث الأولى تمثل مائة سنة فلا يتبع ذلك أن عشرة أقدام تساوى ألفاً من السنين ، بل إنها قد تمثل ٤٠٠ سنة أو ٣٠٠٠ . قد يذكر عالم الآثار أعداداً صحيحة وذلك لتسهيل مهمته ، ولكنه فى حقيقة الأمر لا يفكر

بتاتاً فى إطار الأرقام ، وإذا سئل عن التواريخ فليس فى إمكانه إلا أن يجيب بأنه لايعرف . ومن ثم إذا رجعنا من التاريخ الذى يعتمد بشكل كبير على السجلات المكتوبة إلى عصر ماقبل التاريخ — وهو الميدان الخاص لعالم الآثار — كان علينا أن نقبل عصورا بدلا من التواريخ ، وتحركات جنسية بدلا من الأعمال الفردية . إنها صورة معبرة مرسومة بفرشاة أعرض غير أنها ليس من الضرورى أن تكون أقل صدقا .

والتاريخ المكتوب لايخبرنا بشىء عن تاريخ بريطانيا فيما قبل سنة ٥٥ ق . م . ، وحينئذ يتحدث فقط عن غزو جزيرة كان علينا أن نفترض أنها كانت مأهولة بقوم من الهمج المتوحشين .

ولكن علم الآثار يستطيع أن يخبرنا عن ملوك بريطانيين فى الجنوب والشرق كانوا متحضرين إلى درجة أنهم كانوا يسكون نقودهم الخاصة على طراز القطع الذهبية المشهورة فى مقدونيا . وبواسطة بعض الواردات من مصانع الحديد فى هلشتات[1] فى

---

(١) كانت مدينة هلشتات Hallstatt فى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد مدينة مهمة . ولقد تم اكتشاف أكثر من ألف قبر فى منطقتها تظهر بوضوح فنا وحضارة لمماطابهمها المتقدم ، ولهذا السبب يعرف هذا العصر باسم مرحلة هلشتات . وكانت هذه المنطقة تشمل عدداً كبيراً من مناجم البرونز كما أن ملاحاتها كانت تجتذب التجار من ايطاليا وبلاد اليونان والسيثيين فى آسيا ، ومن ثم انتقلت اليها أنواع كثيرة من التحف الفنية من جهات مختلفة .

هنغاريا ، وأشكال الأدوات والأسلحة البرونزية والأقداح الكبيرة من الصلصال ، والآثار الحجرية الضخمة يستطيع أن يتتبع علاقات تجارية مع القارة وغزوات قبائل منها ، كما يستطيع أن يتتبع تحركات السكان حينما كانت تتنازل العناصر القديمة عن أرضها أمام القادمين الجدد ، ويستطيع أن يبعث من جديد فى خطوط عريضة بدايات إنجلترا . وكل مانعرفه تقريبا عن بريطانيا الرومانية مستمد من الحفائر بما فى ذلك تخطيط مدنها ، وأحوالها الاقتصادية ، وحياة أهلها ، وتنظيم حكومتها . ولم يمدنا التاريخ إلا بما يزيد قليلا عن الهيكل العظمى . وفى قصة « عفريت (بوكس هل[١]) » يصور « كبلنج »[٢] الحائط الرومانى صورة حية كأنه يصيف قرية هندية فى العصر الحاضر ، ولم يذكر الكتاب الرومان شيئاً عن ذلك السور العظيم الذى حمى بريطانيا من قبائل « الپكت »[٣]

---

(١) « عفريت (بوكس هل) » Puck of Pook's Hill قصة كتبها كبلنج سنة ١٩٠٦ م . وموضوعها متصل بعالم الجن . (أنظر الهامش التالى)

(٢) « كبلنج » Rudyard Kipling قصصى انجليزى ولد فى الهند سنة ١٨٦٥ م وتأثر فى قصصه بالمجتمع الهندى ، وتوفى سنة ١٩٣٦ م .

(٣) Picts قبائل شمالية كانت تقطن اسكتلنده فى العصر الروماني .

أو عن عيون « باث »[1] الساخنة ، أو عن . « ڤلات » جزيرة « وايت »[2] ولكن استطاع كپلنج أن يعتمد على نتائج المنقبين فى جميع تفاصيله .

---

(١) Bath

(٢) Isle of Wight

الفصل الرابع

حفر القبور

تعرضت حتى الآن للتنقيب فى المبانى ومدى ما يستطيع الإنسان أن يتعلم منها ، وأرجو أن أكون قد أوضحت أن معظم المعلومات التى نحصل عليها هكذا تعتمد إما على المبنى نفسه وتخطيطه الهندسى وإما على محتويات قد تكون فى ذاتها ضئيلة القيمة . قد يعثر فى أنقاض معبد من المعابد — إذا ساعد الحظ — على تماثيل ونقوش ، وقد يعثر فى منزل خاص على مخلفات من النوع الذى لايهتم آخر السكان بأخذه معهم . ولكن إذا دخلت متحفاً ونظرت إلى التحف القديمة المجموعة هناك يمكنك أن تكون واثقاً من أن أغلبها لم يعثر عليه فى مبان ولكن فى قبور .

وفى جميع أنحاء العالم وفى معظم العصور فى تاريخ كل جزء منه دفعت الإنسان عقيدة فى نوع من الحياة بعد الموت إلى أن يضع فى قبور موتاه أشياء قد تفيد فى العالم الآخر ؛

وعلى العكس بالعثور فى قبر على أشياء من ذلك النوع ، يمكن أن نستنتج سيطرة العقيدة فى حياة مستقبلة . ولا أعنى هنا تلك الأشياء الشخصية جداً من النوع الذى قد تحتم العاطفة تركه للجثة : كالدبوس الذى يشبك العباءة أو يربط أطراف الأثواب الملتفة ، وكالخاتم فى الإصبع ، والتميمة التى كانت تلبس فى الحياة حول الرقبة ؛ كما لا أعنى أيضاً أشياء كتلك التى قد تعتبر مجرد قرابين توضع لتذكرة الموتى : كالسيف فى يد المحارب واللعبة التى يلعب بها الطفل ولا يجوز أن يلعب بها أحد غيره ، وأكاليل الأزهار التى تعبر فى عرفنا الحديث عن الاحترام الحزين . ولكن « أثاث القبور » — إذا استعملنا هذه العبارة المتعارف عليها بين الأثريين — هى أشياء ذات صفة محددة ، كما أنها تدل على آراء بشكل قاطع .

كان الإغريق يضعون فى فم الرجل الميت قطعة من النقود ليدفعها « لتشارون »[١] أجر نقله عبر نهر الموت . وقد يأخذ المصرى معه نسخة من كتاب الموتى تلهمه الإجابات الصحيحة على أسئلة الآلهة أو الشياطين الذين يمسكون ببوابات العالم السفلى ويمتحنون كل من يمر خلالها . وفى العراق تمده أوانى الطعام والشراب بما يقيم أوده أثناء الرحلة الطويلة التى على الميت أن

---

(١) Charon

يقوم بها . وكانت هذه الاوانى فى أحد العصور ترص على قارب مصنوع من القار ، مما يوحى بأن الرحلة لابد أن تقطع على سطح الماء . ولكن لم تكن الرحلة هى كل شىء . فهناك حياة العالم الآخر كلها ، ولأنه من المتعذر أن نتخيل الحياة بأسلوب يغاير أسلوب الحياة التى نعرفها كان من المفروض أن تكون أعمال الرجل وحاجاته فى الحياة الأخرى مشابهة جداً لما كانت فى الماضى — فالعالم الآخر استمرار للعالم الحاضر . ومن ثم أيا كان ما يستعمله ويحتاج إليه فى حياته الأولى فسوف يستعمله ويحتاج إليه بعد الموت . فالمرأة تأخذ مغزلها وأبرتها ومرآتها وأدوات تجميلها ، والجواهرجى ميزانه وصنجه ، والنجار منشاره وأزاميله ، والجندى أسلحته فى الحرب . ويجب أن يزود الملك بأمثلة من عظمته الأرضية ؛ فالقائد « الفيكى » [١] يرقد فى مدفنه على ظهر قاربه ذى المنقار المدبب وحوله كل عدته ، والملك

---

(١) نسبة إلى الفيكيين Vikings أى شعوب الفيوردات أوالخلجان وسموا كذلك لأنهم جاءوا من الفيوردات العميقة فى شاطىء اسكنديناوه فى أوربا . وكان يستخدمون قوارب طويلة سوداء ، وقلما كانوا يستعملون الشراع . وفيما بين القرن الخامس والتاسع الميلادى كان بينهم وبين المسيحيين فى أوربا صراع شديد . ومنذ أواخر القرن التاسع أخذوا يؤسسون دولا فى انجلتره وفى نورمنديا وغيرها كما أقبلوا على اعتناق المسيحية . ومن هذه الشعوب الشمالية الإنجليز والسكسون والدانمركيون .

السومرى [١] لايوضع معه فقط كنزه من الذهب والفضة والمرمر واللازورد والبرونز ولكن أيضاً جثث حاشيته المذبوحة لتصحبه ولتخدمه فى محيطه الملكى الجديد [٢] ، والفرعون يزود فى قبره الفسيح المنحوت فى الصخر بمظاهر كثيرة من العظمة حتى أن قبر توت عنخ آمون [٣] أحد الحكام الخاملين فى مصر — وكان قد عثر عليه سليما — قد أذهل العالم بثروته . فليس عجيباً إذن أن يستمد عالم الآثار كثيراً من مادته من الجبانات فى العالم القديم ، كما أن مايجده هناك لايوضح المعتقدات وعادات الدفن فى الماضى فحسب ، ولكن الحياة اليومية أيضاً .

ومع هذا ينبغى ألا نظن أن مثل هذه الثروة من الأشياء

---

(١) نسبة إلى السومريين (أنظر ص ٢٢ هامش ٣)

(٢) كان العظيم السومرى يصحبه إلى العالم الآخر — عن طوعيه — نخبة من حاشيته ذكوراً وإناثا . وكان الجميع يرتدون أجمل حللهم ، ويتزينون بحليهم ويصطحبون معهم أدواتهم ووسائل تسليتهم وعرباتهم بحيواناتها . ويبدو أنهم كانوا يأخذون أماكنهم بانتظام وهدوء ، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى العالم الآخر ، وربما كان ذلك تحت تأثير مخدر قوى . ومما كشفته الحفائر العلمية المنظمة التى قام بها مؤلف هذا الكتاب فى أور أن إحدى الوصفيات يبدو أنها كانت قد ضاق بها الوقت عن استكمال زينتها فخشية من التأخر عن اصطحاب سيدها إلى العالم الآخر أخذت مشطها معها فى جيبها حتى تتزين به بعد ذلك بعد انتقالها إلى عالم الأموات .

(٣) أنظر ص ١١ هامش ١

والمعلومات من السهل الحصول عليها وأنها تقبع فى مكانها تحت سطح الأرض فى انتظار مناداة صاحب المعول «افتح ياسمسم» فحسب ، بل الواقع أنه فى كثير من الاحيان يأتى التنقيب فى جبانة قديمة بنتائج مخيبة للآمال .

تخبرنا بعض الأساطير أنه حينما نزل القديس باتريك [١] فى ايرلنده أرشده أحد الأهالى إلى ركمة ترابية فوق قبر أو أكمة مستديرة القمة ، وأوضح له أنه فى داخلها ترقد جثة أحد الملوك فوق كومة من ذهب يبلغ ارتفاعها نصف حربة . وسرعان ما حفر القديس إلى داخل القبر فوجد الذهب ، وعرفانا منه للجميل نقل من جهنم إلى الجنة روح الوثنى القديم الذى ساهم بذهبه فى نشر الدين . وفى واقع الأمر ليس فى الاستطاعة إخفاء مقدار من الذهب بهذه الكثرة مدفون فى قبر بحيث ينسى أمره تماماً ، بل الذى حدث هو أن دخول جنس جديد إلى بلد ما أو حلول دين جديد محل آخر قديم قضى على القوى السحرية التى كانت تبعث الخوف فى النفوس ، وتبقى على الكنز سليما . وبالقضاء على هذه المشاعر أصبح من السهل الحصول على الذهب . وحتى بدون تغيير كهذا من المعروف أن الطمع أقوى من التدين

---

(١) انتقل من بريطانيا الرومانية إلى ايرلنده للتبشير بالمسيحية .

ويمكننا فى أور [١] أن نتتبع فى تربة الجبانة العظيمة السراديب التى اقتحمت عن طريقها القبور الملكية تحت الأرض حينما كان مكانها لا يزال معروفا عـــلى وجه التحديد ، وربما كانت مميزة بواسطة مصليات مبنية فوقها عـلى سطح الأرض . ولم يغفل اللصوص ـــ من جميع قبور الفراعنة فى وادى الملوك ـــ غير قبر واحد فقط : هو قبر توت عنخ آمون [٢] . ولقد بكر اللصوص فى العمل ، إذ نمتلك بالفعل التفاصيل التى قامت بكتابتها لجنة من اللجان عينها فراعنة الأسرة العشرين لتحقق فى السرقات الكبيرة العامة التى تعرضت لها قبور تلك الأسرة نفسها فى وادى طيبة [٣] . ولم تكن هذه السرقات محصورة فى قبور الملوك الغنية : فتسعة وتسعون فى المائة من القبور العادية المقطوعة فى الصخر فى مصر قد نهبت فى العصر القديم ، ومعظم القبور الباقية لم تترك إلا لأنه كان من المعروف أن محتوياتها لا تستحق المخاطرة بالدخول لسرقتها ؟ وقد يأمل عالم الآثار الحديث أن يستخرج من القبور

---

(١) أنظر ص١٢ هامش ١

(٢) أنظر ص ١١ هامش ١

(٣) مدينة طيبة مدينة قديمة فى أقصى جنوب الصعيد فى مصر وقد كانت عاصمة مصر فى عصر الدولة الحديثة فيما عدا عصر اخناتون حيث استبدل بها تل العمارنة . وكان وادى الملوك جبانة ملوك هذه الدولة .

المنهوبة بعض أشياء كانت قد سها عنها اللصوص القدامى أو أهملوها عن قصد ؛ وفى الحالات النادرة التى يعثر فيها على قبر سليم لا يملك إلا أن يعلق آمالا عريضة . غير أنه قد ثبت بالتجربة أنه من المحتمل كثيراً ألا يكافأ إلا بالعثور على القليل . ولقد قمت بالتنقيب فى مكان يسمى « كارانوج » فى جنوب مصر فى جبانة يرجع تاريخها إلى بداية العصر المسيحى ، وحصلت على مجموعة رائعة من الأشياء ترجع إلى الحضارة الميروية [١] التى لم يكن يعرف عنها حينئذ إلا النادر ولكن لم يكن بين هذه المجموعة كلها شىء من معدن ثمين . كانت المقابر عبارة عن غرف مقطوعة فى طمى النيل الصلد يؤدى إلى كل منها درج منحدر يصل إلى مدخل الحجرة . وفى جميع الحالات تقريباً كان الحائط المبنى من اللبن والذى يسد الباب سليما لم يمس ، ولكن كان فى خلف القبر حفرة تصب فى داخلها قرابين الخمر للموتى ، وببساطة نزل اللصوص فى الحفرة وحفروا ثقباً خلال الأرض إلى داخل غرفة القبر . وربما لم يكن الثقب من الاتساع إلا بقدر ما يكفى لأن يدخل الرجل ذراعه خلاله . ولكن هذا الثقب الصغير كان

---

(١) Meroitic Civilisotion نسبة إلى مدينة ميروى Meroe عاصمة المملكة النوبية فيما بين سنة ٣٠٠ ق . م ؟ وسنة ٣٥٠ م . وهى تقع على بعد ١٣٠ ميلا شمال الخرطوم .

كافيا فقد كان اللص يعرف بالتحديد مكان جميع الأشياء الثمينة . وحينما دخلنا نحن عن طريق الباب وجدنا كل شيء فى الظاهر سليما لم يمس : فآنية الفخار المطلية بالألوان والسلاطين البرونز والقنينات الزجاج وصندوق أدوات الزينة من الخشب المطعم بالعاج كانت جميعها فى أماكنها ، والجسد راقد بانتظام وفى سلام . ثم شاهدنا خلف الرأس الفجوة المحفورة فى حائط الطين الرمادى وربما أوضحت خرزتان أو ثلاث بالقرب من الرقبة كيف نتش الخيط وانتزع العقد وربما كانت الذراع اليمنى قد ثنيت إلى أعلى خلفا ثم قطعت إصبع من الأصابع فى سبيل خاتم من الذهب . وإذا فرض أن كان هناك أى شيء آخر من معدن ثمين فقد كان مكانه من غير شك بالقرب من الرأس — فهو أيضاً يسرق . وقد تمت جميع السرقات على يد رجال كانوا يعرفون بالدقة أنواع غنائمهم ومكانها ، وفى إمكاننا أن نتصور أن سارق المقبرة كان يأخذ ملاحظات دقيقة عن كل جنازة وكان يجنى ربحاً وافراً جداً من معلوماته السرية الخاصة .

ولذلك بصفة عامة سواء أكانت المشكلة مشكلة تلال التراب فوق قبور من عصر البرونز فى الجزر البريطانية ، أم الآبار المقطوعة فى الصخر والمقابر ذات الدهاليز فى مصر ، أم القبور الطينية فى العراق ، أم القبور التى على شكل خلايا النحل فى بلاد الاغريق المسينية ، فإن عالم الآثار عليه أن يقنع بفضلات

الناهبين القدامى الذين كانوا أقل استخداما للوسائل العلمية ، ومن النادر أن يجد الكنز سليما لم يمس .

ولكن ليس هذا هو كل شيء ؛ فبالإضافة إلى السرقة هناك مشكلة التربة والظروف : فالمقبرة المصرية المنحوتة فى أعماق الصخر الطبيعى تبقى — لجفافها وبعدها عن التقلبات الجوية لأن الرمال تسد منافذها بإحكام — عاملا قويا يمنع عن محتوياتها عوامل البلى . قد ينكمش الخشب ويلتوى ، وقد يفقد كثيرا من مادته ويصير خفيفا هشا ، ولكنه على العموم لايزال موجوداً ، وقد لاتتعرض الأسرة والصناديق والتابوت الخشبى والأشكال المنحوتة فى الخشب إلا لتلف قليل فى بحر ٣٠٠٠ سنة ، حتى القماش يحتفظ بطبيعته ، وملاءات الكتان فى جهاز العروس المدفون معها لاتزال لينة قوية على الرغم من أصفرارها لطول الزمن ، وربما كان فى الإمكان أن تستعمل اليوم ، أما الأشياء الأخرى كالنحاس الأحمر والبرونز فقد تتعرض لتغير سطحى فقط . وكان الحفار يخرج من أرض المستنقعات النباتية فى الدنمرك بعض التوابيت المصنوعة من جذوع الشجر المجوفة ، ثم يجد فى التابوت جثة محارب من عصر البرونز [١] بملابسه من الصوف والجلد لم تتلف وإن

---

(١) انظر ص ٥٧ هامش ٢

كان قد حال لونها . ولكن فى جبانة أور [١] تتحلل جميع هذه الأشياء الهشة : فقد لايوجد فيها غير غطاء من الحصير يحمى جسد المتوفى وأثاثه من آثار التربة الرطبة المشبعة بالأملاح ، فلا يبقى من الخشب إلا بقعة مرسومة على سطح الأرض الأملس تمثل قشرة بسمك الورق عليها حبات من اللون الأبيض والرمادى يمكن رؤيتها وتصويرها ولكنها تختفى من أثر نفخة ، وقد يصير النحاس الأحمر والبرونز كتلة لاشكل لها من الصدى الأخضر ، وقد تصبح الفضة مسحوقا ذا لون أقرب إلى البنفسجى وحتى العظام ربما تتعفن ولاتترك غير الأسنان لتدل على أنه هنا وضعت جثة رجل ؛ وإنه لمن سخرية الطبيعة أن أسناننا التى تسبب لنا ألماً كبيراً بتعفنها أثناء حياتنا يقف تعفنها عند موتنا ، وتبقى بعد أن تندثر كل أجسامنا . وحيث يحرق بعض الأقوام القدامى الجثث بدلا من دفنها قد لايعثر إلا على أقل من ذلك ، لأن الحليات الشخصية التى قد تبقى على جثة مدفونة كانت فى معظم الأحيان تحرق معها . ففى أغنى قبور الحرق التى تم اكتشافها حتى الآن فى قرقميش [٢] عثرنا فى قبر أمير — ربما مات

---

(١) انظر ص ١٢ هامش ١

(٢) انظر ص ٣٢ هامش ١

فى حوالى القرن الثامن ق . م . — على وعاء من الأوعية التى تحوى رماد الجثث المحروقة فيه شظـــايا رمادية من عظم مكلس مختلطة بكمية من زخارف من الذهب لابد أنها كانت تزين ثوب الرجل المتوفى ، وإذا لم تكن قد طرحت فعلا على كومة الحطب فلابد أن تكون قد وضعت على الأقل فى الوعاء أثناء أن كان الرماد المجموع لايزال ساخنا إذ أن نصف هذه الحليات الرقيقة التى تعتبر كنزاً فريداً فى علم الآثار قد ذاب وصار نقطاً من المعدن الأصفر لاشكل لها . حقاً إن الجبانة — بصفة عامة — تمدنا بأشياء أكثر جداً مما يستخرج من مبانى مدينة من المدن . ولكننا يمكننا أن نأمل فى نفس الوقت فى إنقاذ نسبة صغيرة فقط مما وضعه المشيعون فى القبور .

وبطبيعة الحال يجب أن تختلف طريقة التنقيب فى القبور بحسب طبيعة القبور نفسها . فنى مصر تألفت جبانة عصر ماقبل الأسرات من حفر غير عميقة أو أحواض محفورة فى الرمال على طول حدود الصحراء ، فإذا أزلت السطح الحديث من الرمال التى ذرتها الرياح دلت الدوائر المملوءة بردم ذى لون أكثر دكنة على مكان كل دفنة للعين المدربة على الأقل. أما بخصوص القبور ذات الآبار المحفورة فى الصخر فيجب أن تكسح الرمال والحصباء بعيداً ،

ومن ثم تظهر الصخرة التى قطعت فيها الحفرة المربعة ، وسرعان ما يمكن التعرف على حدودها ، ولا يبقى بعد ذلك إلا مجرد رفع الأنقاض من الحفرة إلى أن نصل الباب الذى يؤدى إلى داخل غرفة القبر على عمق ثلاثين قدماً أو خمسين ، وربما على عمق مائة قدم . وسبق أن أوضحت كيف أن المقبرة الحيثية[١] فى تل يونس بالقرب من قرقميش[٢] عين مكانها بواسطة الأعشاب ذات الجذور العميقة النامية فى التربة ذات الحصا الصلد على شكل حزم ؛ ولقد كان فى إمكاننا هناك أن نحفر حيث دلت المعالم السطحية على مواضع القبور تحت الأرض . أما فى أور[٣] فلابد من أن نحفر حفراً منتظماً فى منطقة واسعة وذلك لانعدام المعالم السطحية ، ولأن القبور توجد أسفل سطح الأرض ، بعضها فوق بعض ، على أعماق مختلفة بحيث أن حقل التنقيب فى هذه الأيام فى موقع طوله حوالى ثمانين ياردة وعرضه حوالى ٦٠ وعمقه نحو ٤٠ يعتبر حفائر واسعة إذ قد كشف وحده عن ١٨٠٠ من القبور قيدت فى سجلاتنا .

---

(١) أنظر ص ١٩ هامش ١

(٢) أنظر ص ٣٢ هامش ١

(٣) أنظر ص ١٢ هامش ١

وحينما نأتى إلى العمل الفعلى فإن المبدأ الأول فى التنقيب عن القبور هو الاحتفاظ بكل شىء فى موضعه : فيجب أن يوضح المنقب بواسطة الملاحظات المسجلة والصور والرسوم كل شىء فى مكانه الأصلى .

وقد يبدو هذا أقرب إلى فضولية وبيلة أو مجرد وسيلة قد بولغ فيها إلى أقصى درجة لذاتها فقط ، ولكنه ليس كذلك ، فربما ينتج من هذا التفصيل الدقيق معلومات قليلة جدا ، ولكنه قد يمدنا أيضاً بمقدار كبير من المعلومات ، وحيث يجب أن نلم بكل شىء لايستطيع المنقب أن يهمل أى دليل - مهما كان شأنه — قد يمدنا بمعلومات فيما بعد حتى ولو لم يكن له مغزى واضح فى ذلك الوقت . ولذا عليه أن يتدبر فى موضع القبر ؛ ويقيس عمقه فى التربة ثم يبدأ فى معالجة محتوياته .

وليس دائماً من السهل أن نحتفظ بالأشياء فى مواضعها ، فإنها فى معظم الأحيان تكون فى حالة بحيث يصبح من النادر لمسها هى أو التراب الذى حولها من غير أن يحل بها كارثة . وفى حالة المدافن التى توضع متلاصقة فى التربة بحيث يكون من المتعذر تحديد القبر نفسه لايستطيع الإنسان أن يعرف فى جميع الأحوال إلى أى قبر ينتمى شىء قد عثر عليه ؛ فمثلا فى حالة إناء يكتشف

أثناء حفر قبر من القبور قد يثبت أنه جزء من أثاث قبر آخر لم يعثر عليه بعد ؛ وعلى الرغم من أن غلطة من هـذا النوع قد لا تبدو خطيرة جدا فقد تصبح مهمة لامن الوجهة العاطفية ولـكن لأنها قد تقلب نظاما كاملا من الترتيب الزمنى رأسا على عقب . ومن جهة أخرى قد توضع القرابين فى بئر قبر من القبور أثناء ملئه بالتراب ومن ثم لاتـكون فى نفس مستوى القبر ولـكن فوقه مباشرة ، فإن لم نلاحظ هذه بدقة وعناية ضاعت صلتها بالقبر ، وفى نفس الوقت قد يغفل ملاحظة هذه العادة الخاصة . لذلك يحاول الإنسان أن يتعرف بأقصى سرعة ممـكنة على القبر ومن تلك اللحظة يبدأ على الخصوص عمل دقيق .

ولقد أمكن تعيين قبر من أغنى القبور فى أور[1] ذلك الذى كان يشمل الخوذة الذهبية المشهورة — عن طريق اكتشاف رأس حربة من النحاس الأحمر مغروزة فى التراب وتدببها إلى أعلى ولما أزيل التراب من حولها ظهرت أنبوبة طويلة رفيعة من الذهب كانت تحلى قمة البئر ، وكان فى أسفلها ثقب فى الأرض نتج عن تحلل الجزء الخشبى من الحربة نفسه وتحوله إلى تراب . وبتتبع الثقب إلى أسـفل وصلنا إلى القبر الذى كانت الحربة تستند على أحد أركانه حينما أهيل التراب مرة ثانية فى داخل الحفرة

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

وبهذا الإنذار السابق كان فى إمكاننا أن نتتبع حدود القبر جميعها قبل أن نبدأ فى كشف محتوياته ، ومن ثم كان فى إمكاننا أن نسجل بنظام كل القرابين والهداية الكثيرة المتراكمة حول النعش .
وفى حالة أخرى عثر على ثقب بسيط فى الارض ثم على ثقب ثان ، وبدا حول شكلهما شىء غير عادى أدى إلى بذل عناية خاصة : فقمنا بصب مصيص فى الداخل ليملأ الفراغ الذى كان قد تركه الخشب المتحلل ؛ وكانت النتيجة هى الحصول على قالب كامل من الجص لقيثارة قد اختفت مادتها من قبل منذ أمد طويل (فيما عدا رأس ثور من النحاس الاحمر ولوحة مصـــورة من الصدف كانت تزين الطرف الامامى من القيثارة وقد عثر عليها فيما بعـد ملتصقة بالجص) ، وهكذا استطعنا بفضل الإشارة الاولى إلى وجود قبر أن نحتفظ بأحسن شىء فيه قبل أن نعرف نوعه على التحقيق ، وفى الواقع عينا مـكانه قبل أن نتحقق فعلا من وجود القبر نفسه .

على الإنسان أن يبحث عن جميع هذه الأشياء الصغيرة : عن الخط الأبيض الرفيع المسحوق الذى يمثل الحصيرة التى كانت فى وقت من الاوقات تغطى جوانب الحفرة ، وعن الثقوب فى التربة حيث وضعت من قبـل الأركان الخشبية العمودية لنعش من أغصان مجدولة ، وعن حافة إناء طويل من الفخار قائمة فى القبر

لم تتهشم إلى قطع على الأرض بسبب ثقل التراب ، فعند مصادفة أى شىء من هذا القبيل فإن صاحب المعول العربى المتمرن جيداً يوقف عمله ، ويبلغ الملاحظ احتمال وجود قبر ، ثم يحل السكين محل المعول وذلك للاحتياج إلى عمل أدق ، ثم يبدأ المنقب فى تسجيل ملاحظاته والقيام بمقاييسه .

وقد تكون إزالة الأنقاض من قبر من القبور مهمة طويلة : فمجرد إزالة التراب بدرجة تبرز الأشياء بروزا واضحا يكفى لأخذ صورة فوتوغرافية واضحة يحتاج إلى وقت وصبر لاسيما وأنه يجب ألا يزال شىء منها أثناء العملية ، وكثيرا ماتكون هذه الأشياء مهشمة أو محطمة فعلا إلى أجزاء لايجمعها بعضها إلى بعض على صورة ما إلا التراب حولها . وفى حالة أبسط القبور يجب أن تزودنا ملاحظات المنقب بمعلومات عن وضع الجثة واتجاهها وذلك لأنه وجد فى معظم الأحيان — كما هى الحالة اليوم — أن مراسيم الدفن تحتم مثل هذه الأشياء ، والمراسيم قد تكون ذات أهمية كبيرة فقد تفيد فى تعيين العصر والجنس والمعتقدات الدينية ، ويقوم المنقب بعمل رسوم أو تسجيل ملاحظات بخصوص مواضع الأشياء جميعها بما فى ذلك بعض التفاصيل كطريقه نظم الأنواع المختلفة من الخرز فى الخيط حول الرقبة أو الذراع ، ومن الواضح أن العقد يصبح أكثر إمتاعا إذا أعيد نظمه حسب ترتيبه الأصلى ، ويحيطنا

بمعلومات عن أشكال الثياب الفاشية أكثر مما يخبرنا الترتيب العرضى لخرز مجموع من القبر بشكل مشوش ؛ ولكن فى سبيل الحصول على ذلك قد يقضى المنقب ساعات مؤلمة منحنيا أو راقدا فوق الجثة أثناء حفره للتراب ونفخه بعيداً برفق حتى يترك الخرز المنفصل سليما من غير أن يمس . ثم يأخذ المنقب مقاييس ورسومات دقيقة للأشياء المفردة ويعين كلا منها برقم يقابل الرقم المذكور له فى ملاحظاته بحيث يمكن إعادة تنظيم مجموعة القبر كلها بعد ذلك للعرض أو للدراسة . ولكن المجهود المحتاج إليه لملاحظة قبر عادى قد يزداد ازديادا عظيما حينما توجد أشياء دقيقة فى حالة سيئة ، أو حيث تبقى مادة تصلح لإعادة تكوين شىء قد تحطم هو نفسه أو تحلل ، وقليل من الناس فقط هم الذين يشاهدون شيئا من ذلك النوع فى الدولاب الزجاجى فى متحف من المتاحف وهم يدركون ماذا تكلف حتى أمكن وضعه هناك .

ومن الأمثلة الجميلة للصبر الذى يبذل فى سبيل إنقاذ عادية قديمة ما يمدنا به قبر الملكة « حتب — حرس » الذى عثر عليه « الدكتور ريزنر » بالقرب من الهرم الأكبر فى الجيزة . ففى مشكاة مسدودة بحائط خلف الغرفة المقطوعة فى الصخر حيث كان

التابوت الحجرى الفارغ . لأم الملك خوفو [١] بانى الهرم الأكبر عثر على كتلة من الخشب المتداعى تحللت إلى مسحوق ، وعلى قطع صغيرة من صحيفة من الذهب ؛ كما عثر على رسوم دقيقة مقطوعة من الذهب ، وصور هيروغليفية كانت قد رصع بها الخشب ثم سقطت حينما تهشم ذلك إلى تراب ، وانتشرت فوق الأرض . فلو أن هذه كانت قد جمعت بمجرد جمع لكانت توضح الرسوم المتفشية والتى كانت تزين الأثاث الملكى عند الملوك المصريين منذ ٥٠٠٠ سنة ولكان ذلك كل شىء . ولكن ما حدث هو أن المنقبين أخذوا يزيلون الردم بمجهود مضن بوصة مربعة بعد بوصة مربعة مسجلين بتحديد دقيق موضع كل قطعة دقيقة ؛ وقضوا ٢٨٠ يوما يعملون هناك استنفدوا خلالها مئات الصفحات من الملاحظات وأخذوا أكثر من ١٠٠٠ صورة فوتغرافية وقد كان فى إمكانهم بفضل ثلاث قطع صغيرة من إطار خشبى ولوحة واحدة منكمشة إلى سدس حجمها الأصلى — ولكن محتفظة بآثار التعشيقات والألسنة والنقور — أن يعيدوا تكوين شىء فريد هو المحفة للملكة وقد كونت الكتابة الهيروغليفية من الذهب — التى جمعت بحسب الوضع الذى كانت فيه على الأرضية — مجموعات كان فى الإمكان ترتيبها بحيث صار لها معنى فكانت نصوصا

---

(١) أحد ملوك الأسرة الرابعة فى مصر القديمة

ملائم تزخرف الاركان القائمة للكرسى ؛ ثم تمكنوا من تصميم كرسى من خشب جديد زخرفت أركانه بالقطع الذهبية القديمة وهو يعتبر نسخة دقيقة للأصل المختفى . ومن البقايا الأخرى من الذهب والخشب استردت نفس الوسائل المضنية كرسيا متقنا ذا مساند وصندوق جواهر وسريراً ؛ ولكن بعد أن أزيلت جميعها من القبر احتاج رجال « الدكتور ريزنر » إلى سنتين كاملتين لأعمال الترميم .

وكانت العربة الزحافة الخاصة بالملكة « شوب — آد »[1] التى عثر عليها فى أور قطعة أثاث مشابهة بعض الشىء لما ذكرناه . فلقد ظهر هناك على غير انتظار قناع أسد من الذهب عرضه حوالى ٤ بوصات قائما بشكل عمودى فى التراب وبأسفله ما يشبه الذقن مرصعا بقطع صغيرة من الصدف واللازورد ، وهذه الأخيرة منفصلة وعلى وشك الوقوع من مجرد لمسة ، ولذا كان لا بد من أن نثبتها بأسرع ما يمكن بواسطة شمع ساخن . وإلى

---

(١) اسم صاحبة جثة كشفت عنها الحفائر فى المقبرة الملكية فى أور (أنظر ص ١٢ هامش ١) وقد عرف الاسم بواسطة ختم اسطوانى عثر عليه فى القبر . ويعتقد أنه يشير إلى ملكة من السومريين ولو أن الاسم لم يكن يحليه أية ألقاب ملكية .

اليمين قليلا عثر على رأس ثان مشابه ، وإلى الشمال على بعد مماثل عثر على رأس ثالث ؛ وحينما أزلنا التربة فيما بينها عثرنا فى الخلف — على بعد بوصة أو نحو ذلك على شريط من الفسيفساء من مربعات ومثلثات دقيقة من الصدف والحجر الاحمر منفصلة أيضا ، ولكنها تكون خطا مستقيما بعض الشىء ، ومن الواضح أن جميع هذه الأشياء كانت متصلة بخلفية من الخشب كانت قد اختفت تماما ، وكانت زخرفة لشىء مهم . وإلى أعلى من ذلك وأبعد إلى الخلف ظهر شريط آخر من الفسيفساء وصف آخر من الرءوس الذهب تمثل رءوس أسد وثيران ، ولكنها فى هذه المرة أصغر كثيراً وفى بروز أشد استدارة ؛ وعلى كل جانب عثر على شريط عمودى من الفسيفساء الأبيض والأزرق ، وأشرطة أكثر فى زوايا قائمة تمتد إلى الخلف فى داخل التربة التى لم تكن قد حفرت بعد . عرضنا عدة احتمالات مختلفة بخصوص هذا الشىء : أهو عرش أم صندوق ولكن المشكلة الرئيسية كانت تتعلق بما يمكن عمله بصدده ، لأن الأشياء كلها كانت منفصلة فى التربة ، ولم تكن فى مستوى واحد ، وكان من الضرورى أن يزال كل جزء قبل أن نتمكن من الوصول إلى الذى يليه ، وكان يخشى بذلك من ضياع تصميم الشىء كله . وكان من الواضح أنه كيفما كان شكل

الشيء فإن الخشب كان قد تحطم إلى ذرات بسبب ثقل التراب ؛ وقد يكون من التضليل استخدام مقياس واحداً يا كان ؛ ولم يكن يكفي لإعادة التكوين — إن أمكن — إلا استخدام نظام دقيق متقن من المقاييس . ولذا كانت كل قطعة مستطيلة من الفسيفساء — مهما كانت تالفة — تجمد بواسطة الشمع والشاش ، وبعد أن نحدد مكانها بواسطة مقدار كبير جداً من الملاحظات والرسوم البيانية ونتأكد من موقعها بالنسبة إلى كل قطعة أخرى مجاورة كانت ترفع ، ثم يزال الردم ، ويمهد الطريق للتقدم خلفها إلى القطعة الصغيرة التالية من الزخرفة . وكان الجانب البعيد من العربة نصل اليه بطبيعة الحال من الخلف ، وكان علينا أن نبحث عن أشرطة من مسحوق أسود هو القار الذى كان قد ثبت فيه الفسيفساء من الصدف واللازورد ، وبما أن هذا الجانب البعيد كان قد تهاوى نحو الداخل وكل شيء هبط بانحراف لم يكن من السهل التعرف على الأشرطة أو تتبعها ، وكان علينا أن نقرر مقدار الانحراف الأصلي ومقدار الانحراف الذى يرجع إلى مجرد المصادفة ؛ لا أدعى أن ملاحظاتنا أثناء الحفائر كانت بضخامة ملاحظات الدكتور ريزنر ، ولكنها كانت قد ملأت عددا كبيراً جداً من الصفحات قبل أن تزال آخر قطعة صغيرة من العربة .

وحينما أعيد تكوين العربة على الورق بفضل المقاييس التى كانت قد أخذت ، كان احتمال الخطأ لايكاد يعدو نصف بوصة ؛ وكان من الممكن أن نبنى جسما جديدا من الخشب الحديث ، وأن تثبت فيه الترصيع القديم ونحن على ثقة بأن الشكل الجديد نسخة صادقة للأصل الذى كان قد اندثر تماما منذ ٥٠٠٠ سنة من وقتنا هذا .

وبعملية مماثلة صار فى الإمكان حفظ القيثارات من الذهب والفسيفساء من مقبرة أور[١] ، وتماثيل الماشية من النحاس الأحمر من « العبيد »[٢] ؛ وقد كانت هذه مصنوعة من معدن رفيع مطروق فوق خشب ، وكان الخشب قد اندثر إلى تراب ، والنحاس الأحمر قد تهشم وتحطم إلى قطع صغيرة ، وحينما أخرجت من التراب كانت من الليونة بحيث أن كثيراً منها كان فى الإمكان إزالته كمسحوق بواسطة حكه بالأصبع ؛ ولم نستطع أن نحافظ على تماسكها لنقلها إلا بواسطة شمع البرافين والشاش . والشمع شىء نافع للغاية فى أعمال الآثار ، وهو ذو فائدة عظيمة لسهولة استعماله ، ففى حالة الهياكل العظمية التى كان يعيش أصحابها فى اور بعد الفيضان مباشرة كانت العظام مضغوطة تحت ثقل حوالى ٥٠ ياردة من التراب فأصبحت مسطحة ، وتحولت معظم أجزائها إلى تراب ،

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

(٢) أنظر ص ٤٣ هامش ١

والأجزاء الأخرى تهشمت إلى ذرات ، غير أنها كانت محتفظة بشكلها العام ، فكانت بذلك مادة لاتقدر بثمن عند علماء دراسة الإنسان . ولقد أزيل كل مايمكن إزالته من التربة ، ثم صب شمع مغلى بوفرة فوق الهيكل العظمى وما يحف به من التربة وكانت الصعوبة الوحيدة هنا فى أن الأرض فى أسفل الحفرة ، حيث كان من النادر أن تصل إليها أشعة الشمس ، كانت الرطوبة قد بلغت فيها حدا جعل الشمع يكون قشرة فوقها بدلا من أن يرسب فيها — وبعد ذلك كسى الجسم بقماش من التيل مغموس فى الشمع الساخن الذى ضغط فوقه ضغطا جيدا إلى أسفل حتى التصق الجسم بالشمع المترسب والثابت تحته . وحينما أصبح الهيكل العظمى كله مغطى أزيلت التربة التى تحته إلى أن صار ممتدا على ثلاثة أعمدة أو أربعة رفيعة بحيث كان فى الإمكان نقله إلى لوح مغطى بقطن طبى أحضر إلى جانبه . وبعــــد ذلك أزيلت كتلة التراب الملتصقة بالجانب الذى كان إلى أسفل ثم أعيدت عملية التشميع والتغطية ؛ وبتغليف الهيكل كله فى شاش مغموس فى الشمع أصبح الجسم الذى لم يكد سمكه يتجاوز بوصة واحدة — إلا أنه بلغ من الصلابة والخفة حدا كان فى الإمكان حمله موزونا على يد واحدة — مهيئا للشحن إلى لندن . وهناك أزيل الغشاء العلوى من التيل بالبخار ، وقشط الشمع المتراكم فوق السطح أولا ثم غسل بالبنزين لإزالته ، وبعد ذلك كانت العظام — وقد تغير لونها

كثيراً — تكتسب لونا أبيض بواسطة بيروكسيد الهيدروجين ، ثم تتماسك إذ لزم الأمر بالسليولوز أو بالصمغ ؛ وهكذا كان فى الإمكان أن يشاهد الهيكل العظمى كما عثر عليه تماماً من غير أن تمس أية عظمة من عظامه المهشمة المبعثرة .

وفى العراق تنشأ مشكلة مختلفة تمام الاختلاف بسبب اللوحات المنقوشة التى تعتبر جزءاً ثمينا جدا من غنائم عالم الآثار . وبما أنها فى أغلب الأحيان من طين غير محروق ويعثر عليها مدفونة فى التربة الرطبة فإنها تكون لينة كالجبن ؛ أو ألين لأن مادتها أكثر تجانسا من التراب الذى يتعلق بها . فليس من الممكن تنظيفها من غير أن تزال العلامات الغائرة فيها والتى ترجع قيمتها إليها وإذا حفظت كما هى فإنها من المحتمل جدا أن تتعرض للتشقق أو حتى للتحلل إلى مسحوق ، لأن الطين مشبع تماما بالأملاح ، كما أنها لن تحتمل من غير شك هزات النقل ، وفضلا عن ذلك يهم عالم الآثار أن يعرف بأسرع ما يمكن — المعلومات التى يمكن أن تعطيها ، وهذه قد تكون تواريخ أو أسماء مبان أو ملوك توجهه فى عمله . وفى أور[1] كانت جميع كتل الطين التى تشبه اللوحات ترفع من الأرض — وهى لاتزال مغشاة بالتراب — وتوضع فى صناديق من المعدن مملوءة بالرمل النظيف ، وبعد أن

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

تترك عدة أيام ليجف الطين توضع الصناديق داخل فرن بسيطة الصنع تحمى بواسطة بخار الزيت الخام ، وتحرق الصناديق إلى أن تصير حمراء ساخنة ، ويصبح الطين نضيجا أو فخاراً محروقا . ثم تخرج اللوحات ، قد يتغير لونها — ولا يهم هذا إلا قليلا — ولكنها صلبة قوية ، ويمكن أن تلصق القطع الصغيرة المكسرة ، وأن تنظف الأوجه بفرشاة من غير أن يؤثر ذلك على وضوح الأحرف . وهكذا لا يمكن أغفال أى نقش مهما كان مهشما إلى قطع كما أن حفظه يصبح مؤكدا .

ويعتبر العمل الذى نقوم به أثناء التنقيب بالنسبة إلى الأشياء التى يعثر عليها عملا مبدئيا فقط : فهو مقصور على مايلزم القيام به لحفظ أجزاء الأثر الذى يكشف عنه متماسكة ، أما تحضيره للعرض فنى الغالب مهمة أكثر تعقيدا ، ولا يمكن أن تجرى إلا فى معمل المتحف حيث تتوفر التسهيلات المناسبة وحيث يمكن إجراء الأعمال الكيميائية . وإذا لم يكن المنقب مؤهلا لأن يقوم بعمل الإصلاح بنفسه فلابد أن يكون على الأقل ملما ببعض المعلومات عن العمل الذى سوف يجرى على الأثر حتى يستطيع أن يرسم بنفسه خطته إزاءه ، وإلا فقد يؤثر مايتخذه من الإجراءات لحفظ الشيء تأثيراً سيئا على اعادة تكوينه . وفى الحقيقة يجب أن

تقل معالجة الشيء على الموقع بقدر الإمكان حتى يترك للمتخصصين في المعمل حرية التصرف. ولكن في نفس الوقت — كما سبق أن أوضحت — قد تستدعي طبيعة الشيء التصرف بإزائه على الموقع تصرفاً غير ضئيل ، والواجب الأول على عالم الآثار هو أن يصون آثاره .

الفصل الخامس

استخدام المادة الأثرية

عند الكلام عن وسائل إنقاذ الآثار القديمة ربما عنيت بصفة خاصة بالأشياء المفردة ، وليس من شك فى أن واجب عالم الآثار أثناء عملية التنقيب هو توجيه عنايته للآثار المنقولة واحداً بعد الآخر؛ إلا أنه بعد الانتهاء من ذلك عليه أن يعيد النظر إلى مكتشفاته بصفة عامة : فإن القطع التى ستنقل إلى المتحف ليست إلا أجزاء من مجموعات هى التى تمدنا بمعلوماتنا التاريخية . لقد كنا ننقب فى جبانة كان من المفروض أن تشمل عدداً عظيماً من القبور ؛ وكنا على علم بالتاريخ التقريبى لأقدم المدافن ولأحدثها أو قل لأحدهما ؛ وعلى أية حال كان من الواضح أن هذة الجبانة ظلت تستعمل زمناً طويلا ، ولذلك ينبغى أن توضح بواسطة محتوياتها التطورات الحضارية التى حدثت أثناء تلك الحقبة ؛ وفى الواقع لم تكن تعرف أية تواريخ بالمرة حينما بدأ الحفر ، ومحتويات القبور هى المادة

الوحيدة التى نملكها من تاريخ عصر طويل ؛ كيف إذن يستغل عالم الآثار مادته ؟

يجب أن نلاحظ أننا حينما نرجع فى الماضى إلى الوراء وتصير معرفتنا قليلة بسيطة ، تنصب دراساتنا على عصور زمنية أطول لأنه فى عرف عالم الآثار يعتبر القرن فترة قصيرة جداً ؛ ولو أنه ربما حوى القرن فى ذلك الوقت أحداثا كثيرة تعادل ما يحدث فى قرن من عصرنا . قد يجمع المنقب كل ما أخرجته قبوره ويقول بصدق معتدل إن الكمية فى عمومها قد توضح زمناً طوله ٣٠٠ سنة ؛ ولكنها فى تلك الحالة لا توضح أى عصر بذاته فى حدود تلك السنين الثلاثمائة توضيحاً صحيحاً . كانت الحياة الانجليزية فى سنة ١٦٥٠ مختلفة جداً عما كانت عليه فى سنة ١٩٠٠ . وحينما يرى زائر من المريخ مجموعة كبيرة من الأشياء المنزلية الانجليزية كالملابس وغيرها ترجع إلى تواريخ متتالية من سنة ١٦٥٠ إلى سنة ١٩٠٠ ولكنها جميعاً مختلطة معا فى إمكانه أن يحصل على فكرة عامة عن حضارة ذات مستوى عال علوا مناسبا ولكنه لا يمكنه أن يتصور ظروف الحياة فى تاريخ معين ؛ إذا وصفت الأشياء فى ترتيب تاريخى فإن زائرنا من المريخ إذا فرضنا أنه ذكى ذكاء مناسبا لا يستطيع أن يتصور كل عصر فحسب ولكنه يستطيع أيضاً أن يتتبع مجرى الاختراع والتطور ثلاثة قرون . وذلك بالتحديد هو ما يحاول عالم الآثار أن يعمله .

وحيث يعثر على وثائق منقوشة قد تصبح المعلومات التاريخية الناتجة عن التنقيب مفصلة للغاية . فمثلا فى « ميروى » [١] فى السودان قام الدكتور « ريزنر » بالتنقيب فى عدد من القبور الهرمية الشكل لم يلتفت اليها أولئك المنقبون الذين لم يتبعوا طريقة علمية ؛ وقد أوضحت النقوش أنها كانت قبور ملوك وملكات من النوبيين . وكانت مصر حوالى القرن السابع ق . م . محكومة بواسطة فراعنة نوبيين لمدة قصيرة عرفنا أسماءهم ، ولكننا كنا نجهل كل شىء عن نشأة هذه الأسرة الغازية وتطورها فى وطنها الأصلى فى الجنوب ، وعما حدث لها بعد طردها من مصر بعد ذلك ، كما جهلنا العوامل التى تفاعلت وأدت إلى ظهور البيت المالك لأسرة كانداكى المتأثرة بالحضارة الاغريقية ، والتى حكمت بلاد النوبة فى أيام الشماس القديس فيليب . ولكن كان فى إمكان الدكتور ريزنر أن يرتب كل قبوره ترتيباً زمنياً وأن يستخلص شجرة النسب للأسرة كلها ؛ وهكذا كان فى الامكان كنتيجة لتنقيب واحد أن يكتب للمرة الاولى فصل كامل من التاريخ القديم وأن يتتبع بالتفصيل نمو حضارة سيطرت على مصر فى وقت من الاوقات . ويمكننا أن نرى كيف استمرت مدة طويلة فى هذا الركن البعيد من وسط أفريقيا الحضارة البدائية التى كانت فى عصر

---

(١) أنظر (ص ٩٤ هامش ١)

ما قبل التاريخ هى حضارة وادى النيل الأسفل ، وكيف أنها تطورت فى ظل مصر التاريخية وتأثرت بحضارة الشمال الأكثر تقدماً إلى أن استطاع النوبيون بفضل أخذهم بأحدث الأنظمة أن يسيطروا بقوة السلاح على أساتذتهم بعدأن اضمحلت حضارتهم . وفى إمكاننا أن نرى كيف أن الروح الزنجية القلقة كانت عاجزة عن أن تحتفظ مدة طويلة بما كانت قد كسبته القوة الشرسة ، وكيف أن حب الزنوج للتجديد جعل بلاد النوبة ترحب باللغة الاغريقية ، وتنشر طلاء اسكندريا على البربرية السائدة فى السودان ، وهكذا تنبعث من أهرام ميروى - التى يعكس أثاث كل منها روح عصره واتصالاته - نفسية جنس فضلا عن الأعمال السياسية لكثير من أجيالها .

ولكن إذا فرضنا أنه ليس هناك وثائق مكتوبة لتحدد ترتيب اكتشافاتنا فما العمل إذن ؟ فى هذه الحالة يعتمد عالم الآثار كلية على مصادره الخاصة ، فعليه أن يستنتج الترتيب الزمنى من الحقائق التى لاحظها ، وعلى كمال ملاحظاته ودقتها تتوقف قيمة نتائجه . وقد أوضحت فى الفصل السابق أن نسبة ودعاء إلى أحد القبور خطأ قد تقلب الترتيب الزمنى كله رأسا على عقب ؛ ربما كان فى ذلك بعض المبالغة ولكنه من الثابت تماما أنه إن لم تكن النسبة صحيحة بصفة عامة فلن يمكن بأية حال الوصول الى ترتيب زمنى . ولكن المسالة ليست مسألة مجموعات القبور فحسب ، فكل نقطة يختلف فيها قبر عن آخر قد يثبت أنها دليل لتأريخ

مقارن ، ويجب أن تدخل فى الاعتبار لأنه مادام الشىء لا يعرف فيجب ألا يهمل .

حينما كان عدد القبور كبيراً ، والأشياء التى أخرجت منها كثيرة ، يصبح فى الإمكان التعرف بصفه عامة على مجموعة أقدم وأخرى أحدث . وبخصوص بعض الانواع ، من المؤكد وجود بعض علامات توضح تطور الصناعة والتحوير والانحطاط التدريجى فى الوحدات الزخرفية وتطور طرز الاوانى ، وقد تعتبر الأمثلة الواضحة لأية عملية من هذا النوع أدلة لتأريخ بعض قبور . وقد يتفق أحيانا هـــذا التطور فى محتويات القبور مع مواضعها فى الجبانة ؛ وسوف يتضح للمنقب أن هذه الأخيرة تنتشر فى طريقة منظمة ، فإما أنها تمتد على طول خط أو تنتشر من مركز إلى الخارج ، وإذن فإن تخطيط الجبانة هو القاعدة الأولى فى التصنيف . أو قد تكون الأدلة مباشرة بشكل أوضح ، كما هى الحالة فى الجبانة العظيمة[١] فى أور حيث تقع القبور فى أغلب الأحيان الواحد أسفل الآخر مباشرة بحيث قد يوجد ستة مدافن مستقلة بعضها فوق بعض ، ومن الواضح أن القبر الأسفل يجب أن يكون فى جميع الحالات أقدم من الأعلى ، وإذا كانت مجموعة القبور الواقعة بعضها فوق بعض طويلة إلى حد ما فمن المحتمل أن أسفلها

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

يرجع إلى عصر قديم بعض الشيء بالنسبة للعصر الذى تمثله الجبانة فى مجموعها ، ومن المحتمل أن أعلاها يرجع إلى عصر متأخر بوجه عام . وهذه هى الحقيقة الثابتة التى يجب أن تعتمد عليها مباحثاتنا التالية كلها .

يحلل عالم الآثار أولا ملاحظاته المأخوذة أثناء التنقيب على شكل جداول ، ففى أعمدة متوازية يوضح رقم كل قبر وعمقه وصفته واتجاهه وجميع محتوياته مشارا إليها برموز عددية توضح طرزها ، ثم يشرع فى مقارناته . فيبدأ بالقبور التى يقع كل منها فى أعمق مجموعة والتى تعتبر بالتالى قديمة نسبيا ثم يقارن محتوياتها فمن المحتمل أن يلاحظ تشابها كبيراً بين كثير من محتوياتها فقد تظهر فى عدد كبير منها أنواع متشابهة من الآنية الفخارية وأشكال متماثلة من الأسلحة والأدوات . وبعد ذلك ينتقل إلى مقارنة محتويات مجموعة القبور المتأخرة ، وقد يجد أيضاً أن بينها بعض التشابه ، ولكنه قد يلاحظ أن الطرز الفخارية والأشكال المعدنية التى عثر عليها فى القبور القديمة لاتظهر من جديد فى القبور الأحدث أو على الأقل من النادر ظهورها فيها ، فى حين أن الأشكال التى تميز المجموعة الأخيرة غير موجودة فى المجموعة القديمة . فإذا كان فى إمكانه أن يصل إلى هذه الحقيقة حق له أن يطمئن بعض الشيء إلى صحة عمله . وإذا افترضنا أن مجموعتيه

تمثلان فعلا على وجه التقريب بداية عصر جبانة ونهايته فعليه أن يشرع بعد ذلك فى فحص باقى القبور على ضوء محتوياتهما . فالقبور التى تشتمل على الأشكال القديمة فقط تضاف إلى المجوعة الأولى ؛ وتلك التى تشتمل على الأشكال القديمة مختلطة بأنواع أخرى لم يعرف عنها شىء بعد توضع مؤقتا فى طبقة واحدة باعتبارها تمثل المرحلة التالية الأحدث ، وتلك التى تشتمل على الأنواع القديمة مع أنواع أخرى كثيرة نسبيا وغير معروفة ترجع إلى مرحلة أحدث تلى السالفة . ثم يستخدم نفس المقارنات مع المجموعات المتأخرة : فبحسب اتفاق الأنواع كليا أو جزئيا ترجع القبور إلى المراحل الأخيرة أو قبل الأخيرة من العصر الذى تمثله الجبانة . بهذه الطريقة ربما أمكن ترتيب ثلث القبور فى عصور زمنية ، أما الثلثان الباقيان فيتركان لاشتمالهما على أنواع لا تزال عصورها غير مقررة . ويجب أن تمتحن هذه النتائج المؤقتة : فتلاحظ مواضع مجموعة القبور التى يفترض فيها أنها ترجع إلى العصر الذى يلى أقدم العصور مباشرة . هل يتفق عمقها بالنسبة للقبور الأخرى مع ترتيبنا الزمنى ؟ وهل تتفق المحتويات الأخرى كالخرز وحليات الذهب والأختام الأسطوانية وغير ذلك مع دليل الأوانى وأدوات البرونز ؟ وإذا كانت كذلك نستطيع أن نطمئن إلى أننا قد اتبعنا طريقا صحيحا ، ومن ثم فإن أنواع الأوانى والأدوات الموجودة فيها والتى على العكس ليست فى قبور أقدم المجموعات

يمكن أن تعتبر مميزة لعصرها ، ويمكن أن تستخدم فى ترتيب القبور الأخرى التى ترد فيها هذه الأنواع ولكن تنعدم فيها بتاتاً أشكال أقدم المجموعات . وهكذا تتكون بالتدريج مجموعات جديدة من القبور الباقية التى لم تكن قد صنفت بعد والتى ترجع إلى مابين المجموعات المبكرة والمتأخرة ، وباستغلال الأدلة الجديدة التى تتولد من كل تصنيف جديد تقل تلك البقية غير المصنفة حتى تنعدم فى الوقت المناسب ، وتقسم الجبانة كلها إلى سلسلة من مجموعات القبور التى تتبع ترتيبا زمنيا حقيقيا والتى توضح التطور المنطقى ، ولكننا لانزال عاجزين عن أن نحدد مراحل التطور بالسنين ، غير أننا نستطيع أن نتتبع مراحل تغير المميزات الفاشية فى الأشياء وبالتالى فى عادات الناس ، ونستطيع أن نرجع أى شىء بواسطة طرازه إلى مرحلة من مراحل التطور الزمنى .

وتبدأ مقارنة أخرى . قد نعثر فى المواقع التى تحوى أبنية مشيدة على بقايا منازل يقع بعضها فوق الآخر ، وكل من هذه المستويات يخرج محصوله من الفخار المهشم وأدوات النحاس الأحمر وقطع الأثاث وغير ذلك ، وبمقارنة هذه المخلفات بما أمدتنا به جبانتنا ، قد يكون فى إمكاننا أن نربط طبقات البناء المختلفة بالعصور المتتابعة فى القبور ؛ وهكذ يتضح لنا لكل مرحلة بعض ظروف الحياة فيها بالإضافة إلى عادات الدفن ؛ وإذا كان فى طبقات البناء خرائب معابد

أمكننا أن نضيف إلى ذلك بعض معلومات عن المراسيم والعقائد الدينية .

وكما هى الحال تماماً عندما يحتاج عالم الآثار أثناء التنقيب إلى مساعدة المهندس فى إعادة تكوين مبانيه ، وإلى مساعدة قارىء الكتابات لقراءة نقوشه — إذا عثر على شىء من هذا القبيل — فكذلك من الضرورى أن يتعاون عدد من العلماء فى دراسة المادة المختلفة التى تخرجها التنقيبات حتى يمكن تصور الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . وغالباً ماتتهم كتب الآثار المنشورة بأنها مملة بشكل لايحتمل وأنها تشمل تفاصيل كثيرة غير مستساغة لايمكن أن يهتم بها غير علماء الآثار ، والإجابة على هذا هى أن أمثال هذه الكتب لم تكتب للقارىء العادى ؛ ونظراً إلى أن المنقب يشعر بأنه لايستطيع هو نفسه أن يستنفد موضوعه فإنه — بينما يسجل استنتاجاته الشخصية بنفسه — يترك لغيره من الإخصائيين كل المادة والأدلة التى بنى عليها تلك النتائج حتى يدرسوها بأنفسهم وعلينا أن ننتظر وقتاً طويلا جداً حتى تكتب الكلمة النهائية فى هذا الموضوع ، غير أنه فى النهاية يستخلص من تلك المادة المهوشة من من الحقائق المستقلة التاريخ الذى يحقق كل شىء . فتخرج القبور مثلا عددا من الجماجم والهياكل البشرية ، ويقوم عالم الأجناس البشرية بفحصها ، ومن مميزاتها العضوية يقرر الصلات الجنسية

لأقدم السكان ، وربما تتبع أثر وصول فصائل جديدة ، وقد يتفق التأريخ النسبي لذلك الوصول من حيث الزمن مع ظهور مميزات جديدة فى الأسلحة أو الآنيه الفخارية ، ويساعد دليل المرض كالتهاب المفاصل وخراريج الأسنان وغير ذلك على تفسير ظروف الحياة ، وتوضح أوضاع العظام المكسورة أو علامات التربنة معلومات عن الجراحة فى ذلك العصر . وقد تعطى التماثيل الحجرية أو الفخارية والرسوم على الأوانى أو الحفر على المعدن فكرة عن هيئة الناس ولبسهم كما أن بقايا القماش — وأحياناً مجرد ماتبقى من علامات التصاقه على المعدن بعد أن تكون المادة نفسها قد اندثرت — توضح مدى مهارتهم فى النسيج ، ثم إن اسطوانة الغزل وأثقال النول والأمشاط توضح طريقة صناعته وإذا عثر فى القبور على دبوس بالقرب من الكتف وموازيا لعظمة الذراع العليا وتعدد ذلك كان دليلا على أن الثوب الخارجى شال غير مفصل أو مخيط ، وكان يلف حول الجسم بحيث يمر أسفل إحدى الذراعين ومشبك بالدبوس فوق الأخرى ، أما العثور على دبوس من دبابيس الصدر فى أسفل الذقن فيدل على أنه كان ثوباً مفصلا مفتوحا عند الرقبة ، كما يضيف العثور على بقايا حزام بعض حقائق إلى الصورة التى يمكن أن نبدأ فى تكوينها بفضل إلمامنا بالمواد ومعرفتنا بالطرز . وإذا حفظت الأساور

والعقود وأغطية الرأس فى أوضاعها الأصلية فإنها تبعث الماضى على التحقيق لا على سبيل التخمين . وقد صارت الآن أغطية الرأس الأنيقة التى كانت يلبسها سيدات البلاط فى عصر القبور الملكية[١] مألوفة — وكان قد حل محلها فى العصر السرجونى[٢] حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م . أشرطة بسيطة من الذهب ؛ لو أن هذه اشتريت من السوق لما أخبرتنا عن شىء ، ولكن بالعثور عليها فى أوضاعها أوضحت لنا كيف كان شريطان طويلان مجدولا حولها الذهب يسحبان من خلف الأذنين ، ثم يشبكان على الجبهة أحدهما فوق الآخر . والصور القديمة للرجال السومريين[٣] التى نعرفها تظهرهم عموما حليقين ، وأحيانا نرى فيها رجالا ذوى شعر طويل ، وكان يعتقد أنهم لابد وأن يكونوا من جنس آخر . وفى قبور الجبانة الملكية[٤] وجد أن الرجال يلبسون عموما

---

(١) أنظر ص ١٢ هامش ١

(٢) نسبة إلى سرجون الأول مؤسس الإمبراطورية الأكدية حوالى سنة ٢٦٥٠ ق . م . والأكديون قبائل سامية كانت تقيم على الحدود الشمالية الغربية لبلاد السومريين (أنظر ص ٢٢ هامش ٣) . ثم استطاع سرجون أن يخضع السومريين وأن يكون إمبراطورية تجمع بينهم وبين قومه من الساميين وتمتد من الخليج الفارسى إلى البحر الأبيض المتوسط . وقد تأثر الأكديون بالحضارة السومرية ، واستخدموا لغتهم وكتابتهم .

(٣) أنظر ص ٢٢ هامش ٣

(٤) أنظر ص ١٢ هامش ١

شريطا فوق رءوسهم مصنوعا من سلسلتين من الذهب أو الفضة وخرزات ثقيلة من اللازورد والذهب مثبتة فى الخلف بواسطة حبل ، والآن لا يمكن أن تكون هذه الا شكلا مبكرا من العقال العربى الحديث أو حبل الرأس الذى يثبت الثوب الملبوس فوق الرأس الخالية تماماً من الشعر ؛ فى إمكاننا أن نستنتج من ذلك بشىء من الثقة أن السومرى القديم كان حليقا وكان يلبس ثوب رأس . ولكن فى قبر من القبور ، بينما كان الجسم له شريط الرأس العادى وجد فى ركن التابوت منفصلة تماما عن الجسم كومة من تراب بنى خفيف كان لايزال محتفظا بشكل الشعر ، وعليه عصابة من الذهب خالية من الزخارف وفيها حلقتان من الذهب ذواتى شكل لولبى لزينة الشعر ، أى أن السومرى الحليق كان يلبس فى بعض المناسبات شعراً مستعارا ، ومن أمثلة هذه الشعور المستعارة الخاصة بالاحتفالات تلك التى تمثلها الخوذة الذهبية الرائعة « مِلس — كالام — دج » التى عثر عليها فى نفس الجبانة . وفى بعض القبور أيضاً وجدنا أدوات تجميل كالملاقيط والمراود لتزجيج العيون وصناديق الكحل بالإضافة إلى مجموعات كاملة من أوانى المراهم من المرمر (وهذه فى قبور مصرية) وفى العراق أصداف بحرية ذات طلاء من ألوان مختلفة ؛ وهكذا نحس بأننا على علم بمنظر هؤلاء الناس الذين ماتوا منذ مدة

طويلة ، وكذلك على علم بشيء من أذواقهم وآرائهم . فلدينا عينات حقيقية من صناعاتهم اليدوية كأشياء من المعدن والحجر والفخار لم تحقق فقط حاجات أكيدة أو تستغل كوسيلة للتعبير عن النفس فحسب ولكنها قد ترشدنا أيضاً بطريق غير مباشر إلى معلومات جديدة فيحاول المتخصص فى علم طبقات الارض أن يتتبع المصادر التى استمدت منها المواد الخام ، التى كانت فى الغالب مستوردة من الخارج بالاضافة إلى مصادر البضائع المصنوعة ؛ ومن ثم تتضح الاتصالات الاجنبية والطرق التجارية . وتوضح القبور الاتروسكية فى إيطاليا (١) وأكمات المقابر الكريمية (٢) وقبور الشام وهنغاريا كيف أن التجار الذين كانوا يتاجرون فى الكهرمان البلطبق قد مدوا نشاطهم نحو الجنوب البعيد ؛ وبما أن الادوات والأسلحة التى عثر عليها فى الجبانة الملكية فى أور (٣) من البرونز الذى يحوى نسبة من النيكل لا توجد فى معدن خام غير ذلك الذى يأتى من عمان على الخليج الفارسى

---

(١) نسبة إلى الاتروسكيين وهم شعب ازدهر فى اتروريا بإيطاليا (تسكانيا) فيما بين القرن الثامن والأول قبل الميلاد مستقلا بلغته وعاداته وأخيراً اندمج بالرومان . وقد تأثر الرومان بهم كثيراً . ويختلف العلماء بخصوص أصلهم ؛ وربما كانوا من آسيا الصغرى .

(٢) Crimean barrows فى روسيا .

(٣) أنظر ص ١٢ هامش ١

فى إمكاننا أن نقرر بثقة أن السومريين (١) فى سنة ٣٥٠٠ ق . م . كانوا يحصلون من عمان على المعدن اللازم لمسابكهم ؛ فى حين أن اللازورد الذى توسعوا فى استخدامه فى حلياتهم كان يأتى من جبال باميرفى جنوب غرب الهند . وقد وجدنا فى أسفل الترسيب الذى تركه الطوفان (٢) خرزيتين من الأمازون وهو حجر أخضر تقع أقرب مصادره المعروفة فى تلال نلغيرى فى أواسط الهند أو فى الجبال فيما وراء بحيرة بيكال — وسرعان ما تظهر صورة إنسان ما قبل الطوفان يرسل قوافل التجارة عبر ألف ميل من الجبال والصحراء من الوادى العراقى إلى قلب الهند . وتوضح العظام التى يعثر عليها فى الأكوام المجمعة من نفايات المنازل أو المبعثرة على أرضياتها لعالم التاريخ الطبيعى أية فصائل من الحيوانات المستأنسة كانت تعيش فى

---

(١) أنظر ص ٢٢ هامش ٣

(٢) ورد ذكر الطوفان فى بعض الأساطير العراقية القديمة ؛ وقد أيدت حدوثه الحفائر العلمية المنظمة إذ ظهر أن مخلفات الحضارة السومرية الراقية (انظر ص ٢٢ هامش ٣) ، التى تتميز خصوصا بالفخار المصنوع بواسطة الدولاب وباللغة المصورة المقدمة ، يفصلها فى الطبقات المتراكمة — عن مخلفات حضارة فطرية قديمة تشبه حضاره تل العبيد (انظر ص ٤٣ هامش ١) طبقة من الطمى المرسب سمكها نحو ٢٫٥ متر خالية من المخلفات الانسانية فيما عدا قليلا من العظام ؛ ومثل هذه الطبقة لا يمكن أن تتكون إلا نتيجة لفيضان عظيم ، مما يرجح أنها حدثت بسبب الطوفان الذى تحكى عنه الأساطير العراقية . ويظن البعض أن هذا الطوفان هو طوفان نوح المذكور فى الكتب المقدسة .

ذلك العصر ، وأى أنواع من الحيوانات الوحشية كانت تصاد وتؤكل ،
وتوضح المحتويات الجافة من جرار الخزين أو أوانى القرابين
أى حبوب وأية فواكه كانت تزرع وتؤكل فى حين أن بعض
أنواع السهام وخطاطيف الأسماك وثقالات الشباك والمحاريث
وأسلحتها والمناجل وأحجار الطواحين توضح مختلف الحالات التى
قام فيها الصياد والفلاح بدورهما . وإذا استخرجت وثائق
مكتوبة يمكن أن يدرسها اللغوى قارىء النقوش فإن
مايعرف عن التنظيم الاجتماعى والترتيب الزمنى الثابت قد يتزايد ،
ولكن حتى من غير ذلك فإن مقارنة محتويات الطبقات المختلفة
ينبغى أن توضح التقلبات الرئيسية فى حياة مدينة من المدن بالإضافة
إلى توضيح عملية التطور والانحلال البطىء . وليس من المحتمل
أن يستخلص من تنقيب واحد تسجيل كامل أو مستمر ، ولكن
بعد أن يتم التنقيب فى عدد من المواقع يضيف مجموع النتائج
التى يصل إليها عالم الآثار ومعاونوه إضافة حقيقية إلى التاريخ .
وفى استطاعتنا اليوم أن نقرأ ما لم يستطع أجدادنا أن يقرءوه ،
فنقرأ قصة حية ومفصلة للحضارات التى أخرجت حديثاً من الأرض
ونعرف الكثير عن مراحل مختلفة فى تجارب الإنسان كانت منذ
وقت قريب « عصوراً مظلمة » بمعنى الكلمة ؛ ويجب علينا أن
نوضح أن كل ذلك لا نعتمد فى تقريره غالباً على وثائق مكتوبة

معاصرة ، وربمـــا كان هذا ما يدفع البعض إلى الشك فى قيمة مانقول وإلى عدم الاطمئنان إلى ذلك الخيال الذى نستعين به على تحقيق كل المعلومات التاريخية التى نستقيها من بضع قطع من الفخار المهشم . ولكن لابد لنا من خيال إذا أردنا أن نبعث الحياة فى جسد حضارة ميتة لم يتبق منها سوى عظام جافة . ومع هذا فلا نسمح للخيال أن يدفعنا للمهاترات - كما حاولت أن أوضح من قبل — إذ تتوقف قيمة « الشقافات القليلة » كوثائق لبناء التاريخ على الوسائل العلمية التى يستخدمها عالم الآثار فى عمله ، فالملاحظة الدقيقة والتسجيل الصادق أساس فى إعادة التكوين.

والواجب الأول على العالم المنقب عن الآثار هو أن يجمع المادة وينظمها ، وهى مادة ليس من المفروض أن يتصرف إزاءها كلها وحده من غير واسطة . ومهما يكن من شىء فلن يكون له الكلمة النهائية ، ولهذا السبب كان من الواجب أن ينشر مادته مفصلة تفصيلا دقيقاً حتى يتيح لغيره أن يستنتج منها ليس فقط مايؤيد وجهة نظره بل ما يعتبر تجديداً وابتكاراً . وعلينا

الآن أن نتساءل : أليس من واجبه أن يقف عند هذا الحد ؟
فى الواقع ليس من الضرورى أن يكون للرجل — المجهز تجهيزاً
كاملا لأن يلاحظ ويسجل - المقدرة على الاستنتاج والتفسير
أو الروح الخالقة والموهبة الأدبية التى تجعل منه مؤرخاً . كما
أن التسجيل لايمكن أن يكون كاملا تماماً ففى أثناء سير التنقيبات
يخضع المنقب باستمرار لتأثيرات داخلية غير مادية يصعب نقلها
إلى الغير ؛ ومن هذه التأثيرات تتضح له — من غير أى سبب
منطقى يمكن تحديده — نظريات فى استطاعته أن يذكرها ، وقد
يمكن أن يدافع عنها ، ولكنه لايستطيع أن يثبتها : هذه النظريات
تتوقف صحتها تماماً على مقاييسه الشخصية ؛ ولكنها على أية حال
لها قيمتها كبوتقة تجمعت فيها تجارب لن يستطيع أى دارس
لآثاره وملاحظاته أن يشترك معه فيها . وإذا سلمنا أن المنقب
كفء للقيام بمهمته فإن النتائج التى يصل إليها من عمله بنفسه
ينبغى أن يكون لها وزنها ، وعليه أن يعرضها ، فإذا كانت خاطئة
بشكل واضح فإنه يحق لنا أن نشك أيضاً فى ملاحظاته . ولاتوجد
حدود واضحـــة بين علم الآثار والتاريخ ، والمنقب الأقدر على
الملاحظة وعلى تسجيل مكتشفاته هو الأحق بتقييمها كمادة تاريخية
وتقديرها حق قدرها ، أما إذا لم يكن لديه القدرة على التجميع
والتفسير فإنه يكون قد اخترق مهنة لم يخلق لها . حقاً إنه

قد لا يملك أية مواهب أدبية ، وحينئذ فقد يكون من الأفضل أن يقوم آخرون بالعرض الشكلى لنتائجه على الجمهور ، ولكنه هو العالم المنقب عن الآثار الذى كشف للقارىء العادى — إما عن طريق مباشر أوغير مباشر — فصولا جديدة فى تاريخ الرجل المتحضر وهو الذى أخرج من باطن الأرض مايثبت قيام حضارة يانعة فى الماضى تخطف أنظار الناس ، وتشحذ خيالهم ؛ وهو الذى حقق ماكان يعتبر أسطورة عفى عليها الزمن .

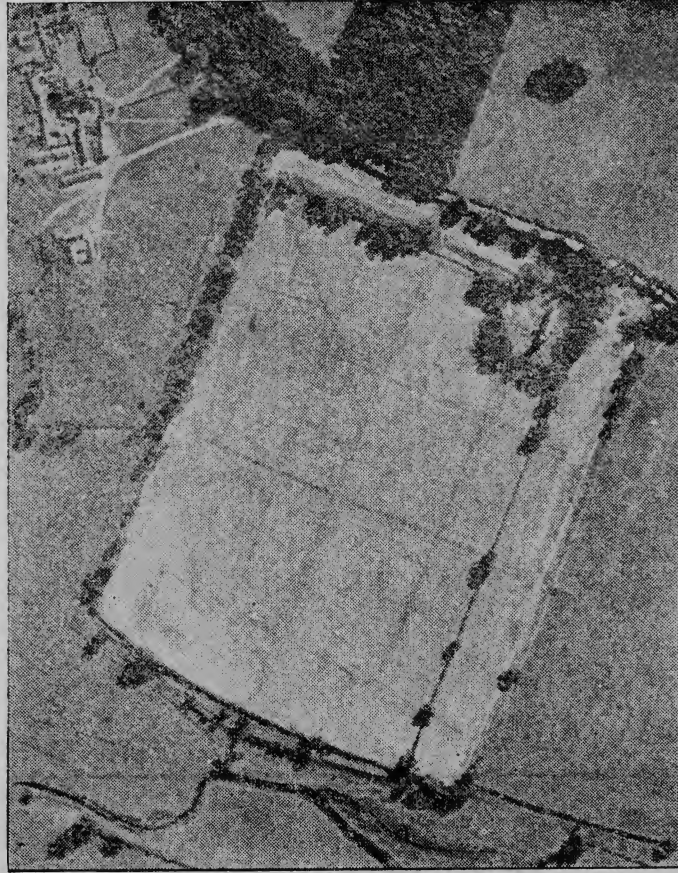
لوحات الكتاب

(لوحة رقم ١)



إزالة الأنقاض من القبور فى أور

(لوحة رقم ٢)



صورة جوية لمدينة كستور الرومانية قبل التنقيب
ويمكن مشاهدة خطوط الشوارع والمبانى بوضوح فيها

(لوحة رقم ٣)



العمال أصحاب السلال أثناء صعودهم لتفريغ التراب
فى العربات فى أور

(لوحة رقم ٤)



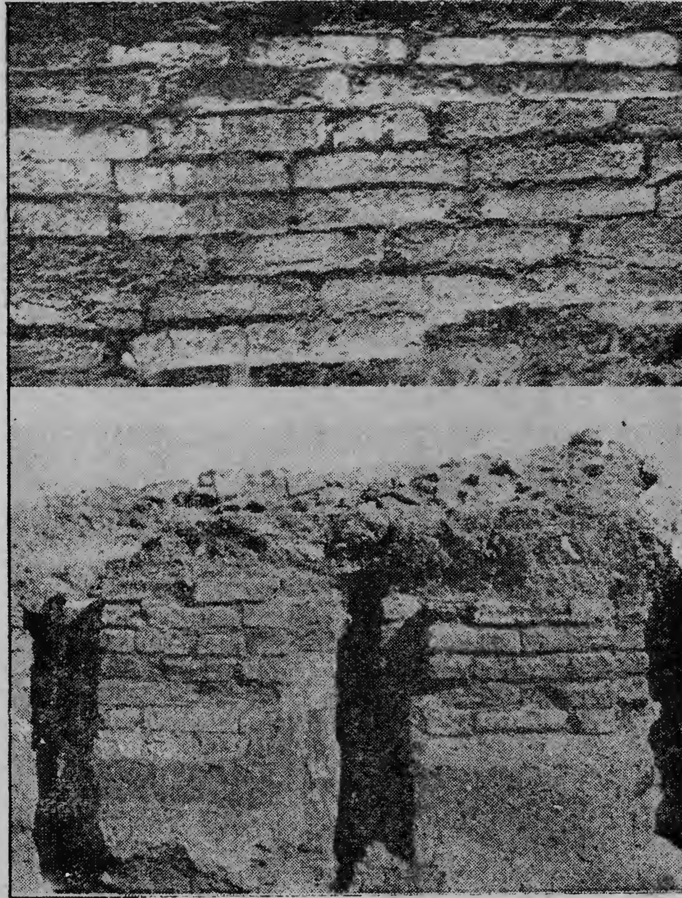
تقدير لُقى اليوم من أجل « البقشيش » في أور .

(لوحة رقم ٥)



الطبقات الأثرية فى أور : (ا) مصطبة قورش ملك الفرس ، ح سنة ٥٢٥ ق.م.
(ب) مصطبة نبوخذ نصر ، سنة ٦٠٠ ق.م.
(ح) حوائط كوريجالزو أسفل المصطبة ، سنة ١٤٠٠ ق.م

لوحة رقم ٦



ا

ب

أدلة تأريخ حوائط معابد فى أور بها نقوش ملكية على قوالب الآجر
(ا) تخص « بور - سن » ، سنة ٢٢٢٠ ق . م .
(ب) تخص « كوريجالزو » ، سنة ١٤٠٠ ق . م .

(لوحة رقم ٧)



« وثيقة تأسيس » فى أور .

(ا) الصندوق فى أساس الحائط .

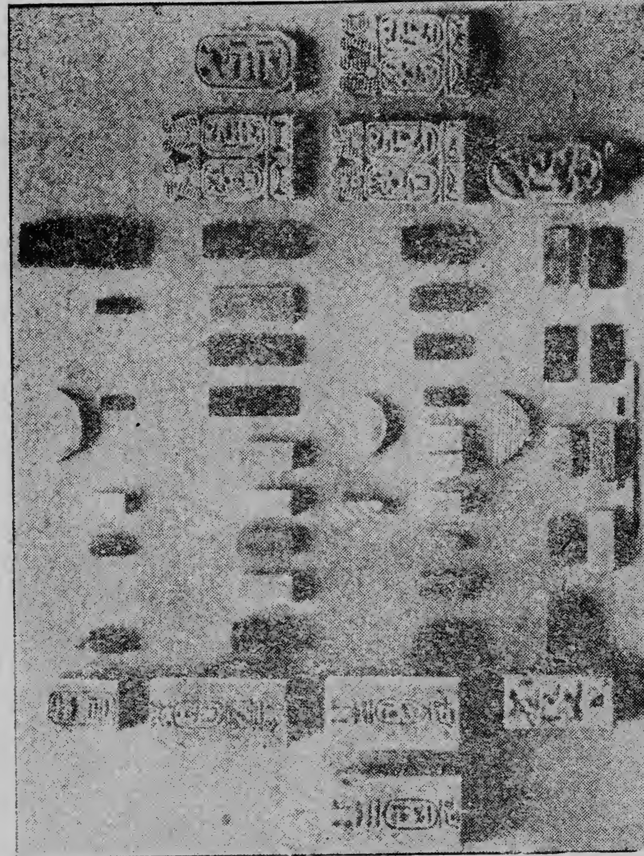
(ب) تمثال من النحاس الأحمر ...

(لوحة رقم ٨)



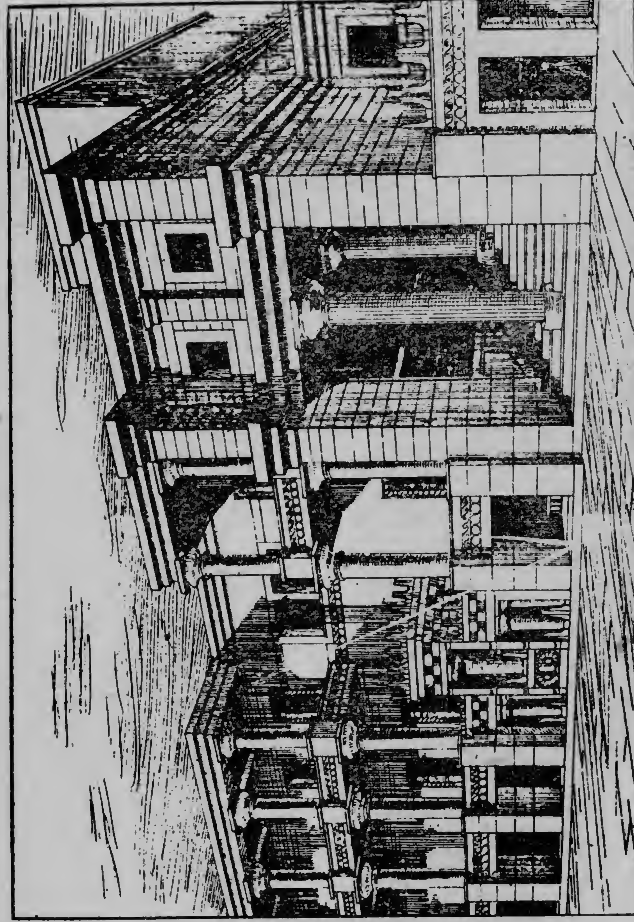
«وثيقة تأسيس» في أور. اللوحة الحجرية للملك «رم - سن».

(لوحة رقم ٩)



لوحات من مواد مختلفة من وثيقة تأسيس لأحد الملوك النوبيين

(لوحة رقم ١٠)



قصر مينوس فى كنوسس . تصور حديث لجزء من القصر الغربى
مواجه للفناء الأوسط

(لوحة رقم ١١)

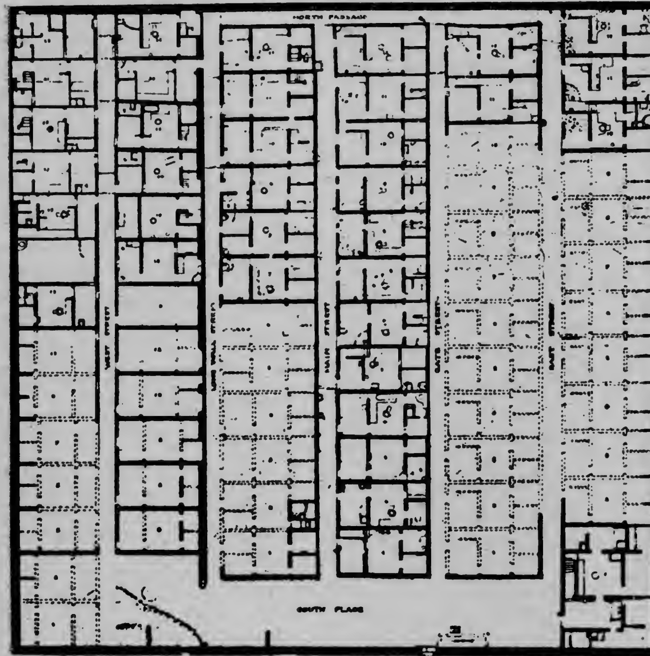


قصر مينوس فى كريت . ترميم للبناء الفعلى .

(ا) غرفة الملك الكاهن .

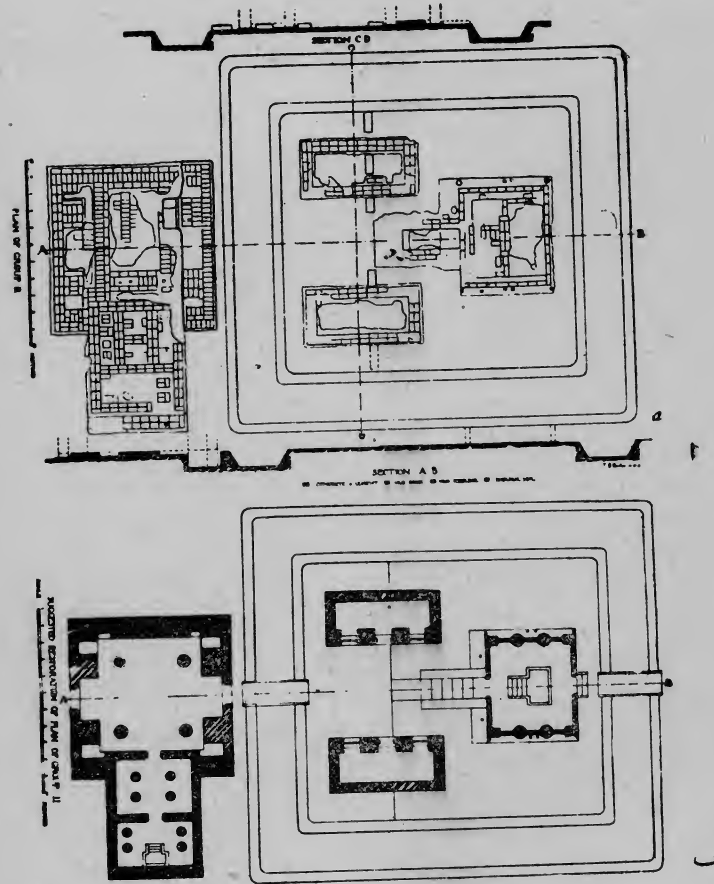
(ب) مدخل مدرج ودرج أوسط .

(لوحة رقم ١٢)



تخطيط فى « القرية النموذجية » للعمال فى العمارنة .

(لوحة رقم ١٣)

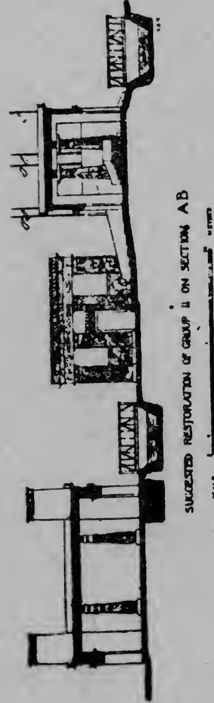


معبد فى العمارنة .

(ا) الرسم الهندسى للمعبد كما عثر عليه .

(ب) الرسم الهندسى معاداً إلى حالته الأصلية .

(لوحة رقم ١٤)



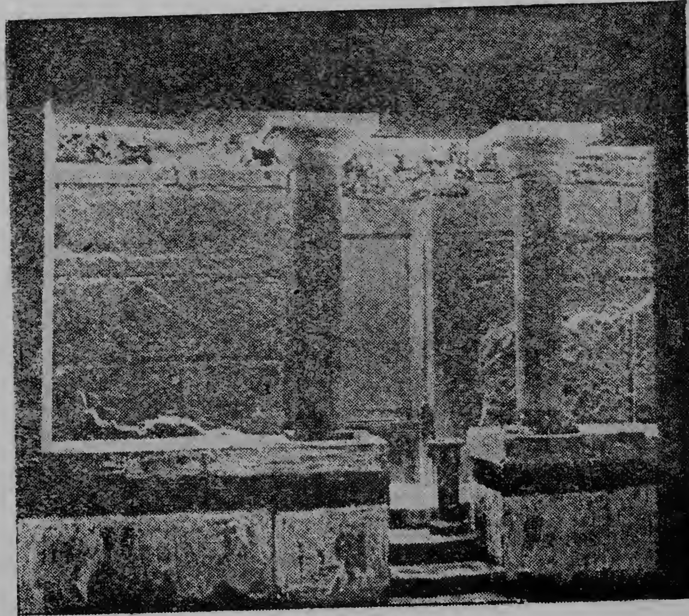
معبد فى العمارنة . تصور حديث للمعبد المتهدم الذى تشاهد بقاياه
الفعلية فى لوحة رقم ١٣ .

(لوحة رقم ١٥)



غرفة للعبادة فى منزل من منازل أور ، ويشاهد فيها المذبح ، ومصطبة الهيكل ، وفى المقدمة قبو الدفن أسفل الأرضية .

(لوحة رقم ١٦)



قصر مينوس فى كنوسس . ترميم للأنقاض الفعلية .

(لوحة رقم ١٧)



ردهة أحد منازل العمال فى العمارنة .



تابوت مكفت بالذهب لحفظ الامعاء، من مقبرة توت عنخ آمون .
محفوظ بمعهد جريفث فى أكسفورد .

(لوحة رقم ١٩)



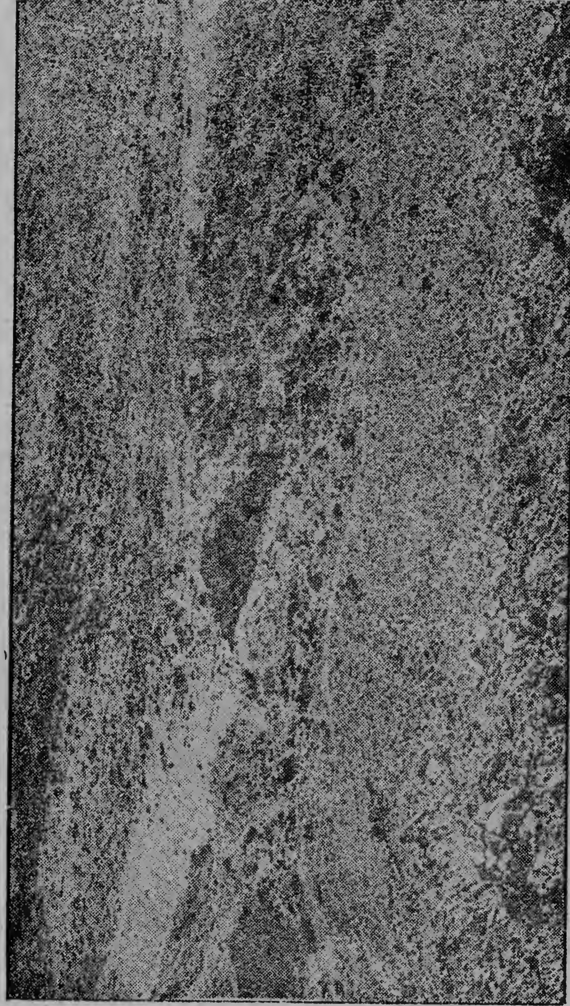
مصلية فوق مدخل أحد القبور فى كرانوج . ويلاحظ أن بناءها من الآجر سليم لم يمس . متحف الجامعة فى فيلادلفيا .

(لوحة رقم ٢٠)



جزء من تابوت من كتلة خشبية يرجع إلى عصر البرونز . من إحدى المستنقعات النباتية فى اسكنديناوه ، وتشاهد الجثة وجميع الثياب فى حالة حفظ جيد .

(لوحة رقم ٢١)



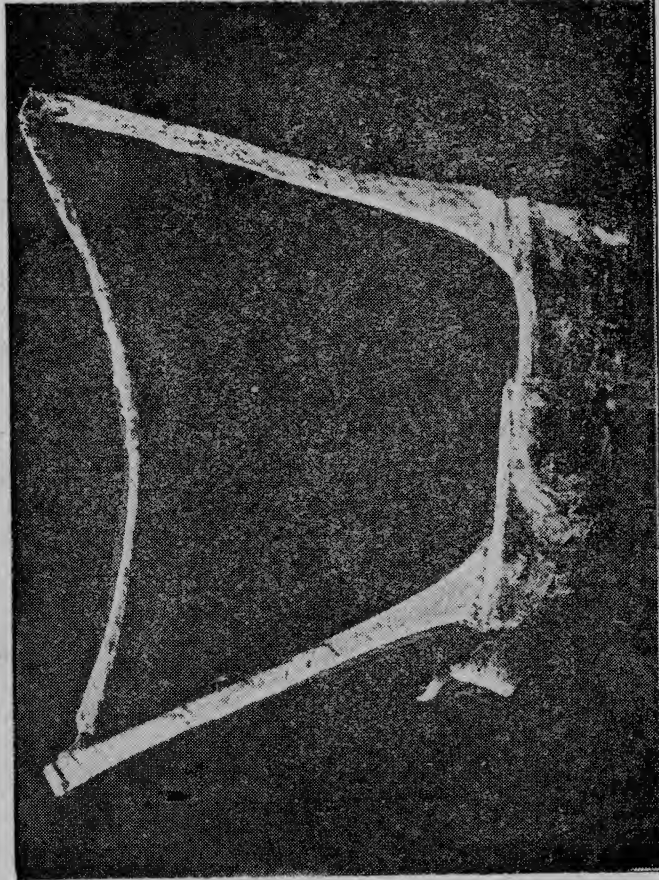
جبانة من عصر ما قبل الأسرات فى جنوب مصر ، ويشاهد فيها
فجوات القبور المتقاربة فى الرمال .

(لوحة رقم ٢٢)



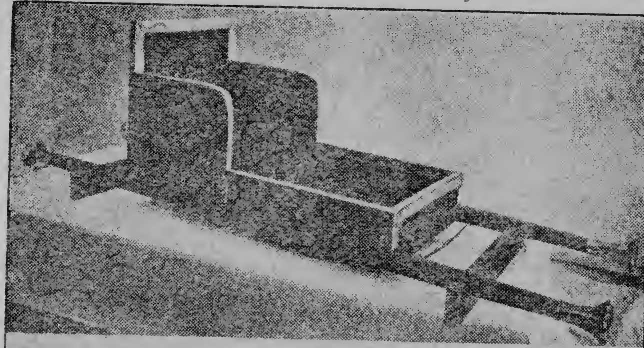
« إزالة الأنقاض من أجل التصوير » قبران مصريان من عصر ما قبل الأسرات ، ويشاهد فيهما الهياكل العظمية وغيرها من الأشياء في أوضاعها الأصلية .

(لوحة رقم ٢٣)

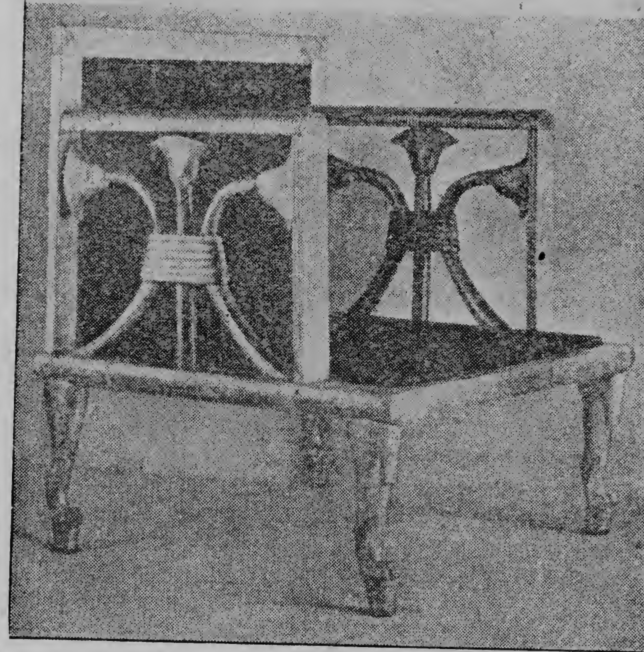


قالب من المصيص لقيثارة من الخشب ثبت به رأس بقرة من النحاس الأحمر ، من أور .

(لوحة رقم ٢٤)



ا



ب

ا — محفة « حتب - حرس » ، بعد ترميمها .

ب — كرسي ذو مساند يخص « حتب - حرس » بعد ترميمه .

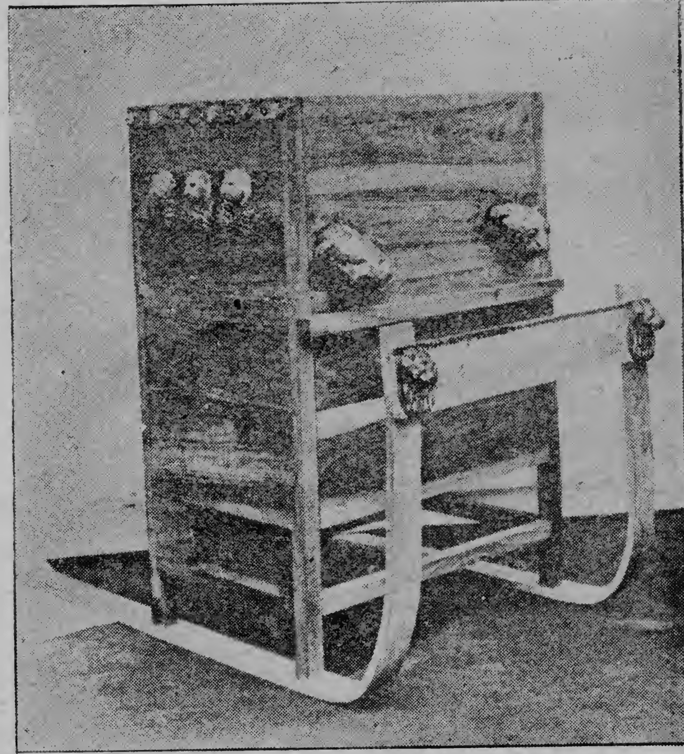
بمتحف الفنون الجميلة فى بوسطن .

(لوحة رقم ٢٥)



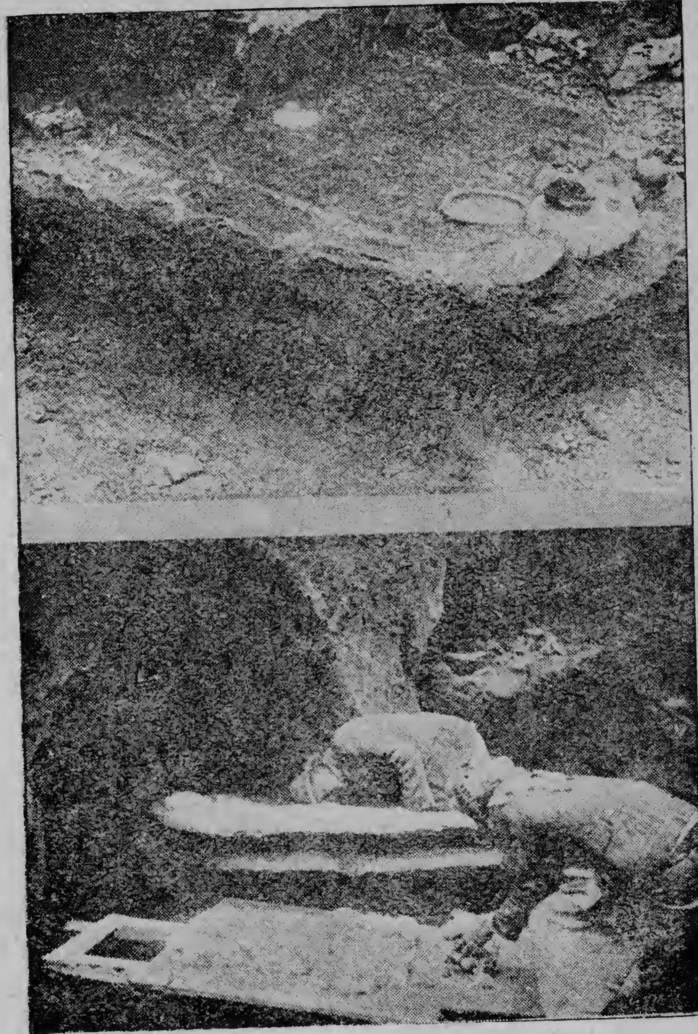
أقنعة من الذهب على شكل رءوس أسود كانت تزين العربة الرحافة للملكة «شوب - آد» ، وتشاهد مبسوطة فى التربة.

(لوحة رقم ٢٦)



العربة الزحافة الخاصة بالملكة « شوب — آد » ، بعد ترميمها .

(لوحة رقم ٢٧)



ا

ب

نقل هيكل عظمى من عصر الطوفان .

ا — الهيكل بعد تنظيفه واعداده للتصوير .

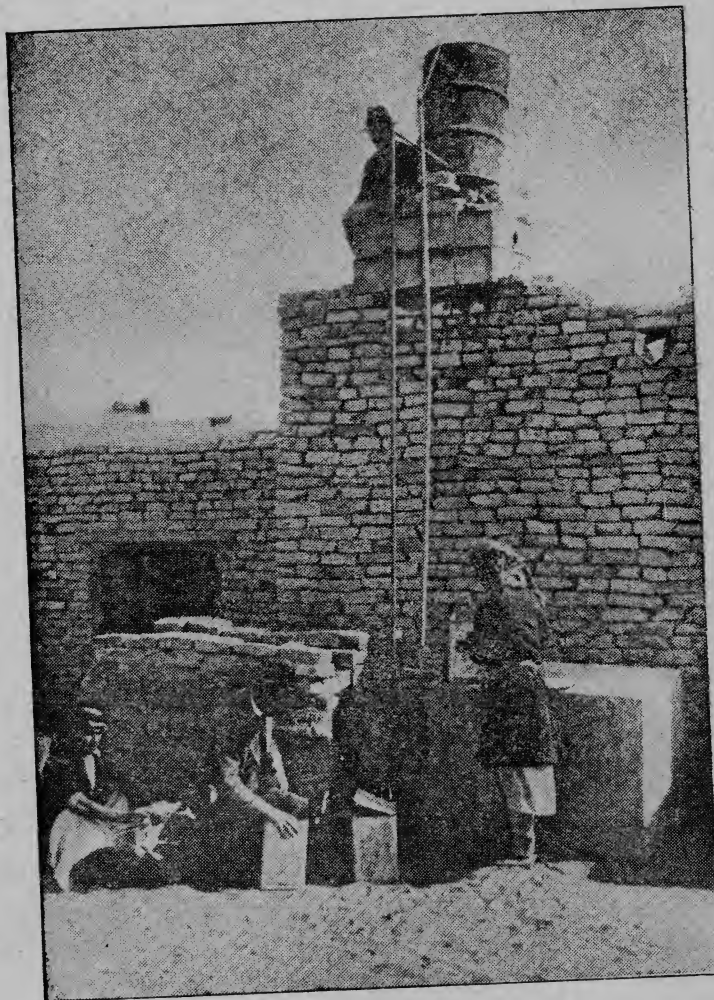
ب — إزالة التربة أسفل الهيكل بعد تشميعه وكسائه بقماش التيل حتى يمكن نقله مقلوبا على اللوح الموسد بالقطن إلى جانبه .

(لوحة رقم ٢٨)



استخراج الوحات فى اور . وضعها بعد استخراجها مباشرة فى صناديق من المعدن مملوءة بالرمل النظيف .

(لوحة رقم ٢٩)



حرق اللوحات الطينية فى أور . وضع صناديق الصفيح فى فرن تحمى بواسطة بخار الزيت الخام من المستودع فوق سطح المنزل .

(لوحة رقم ٣٠)

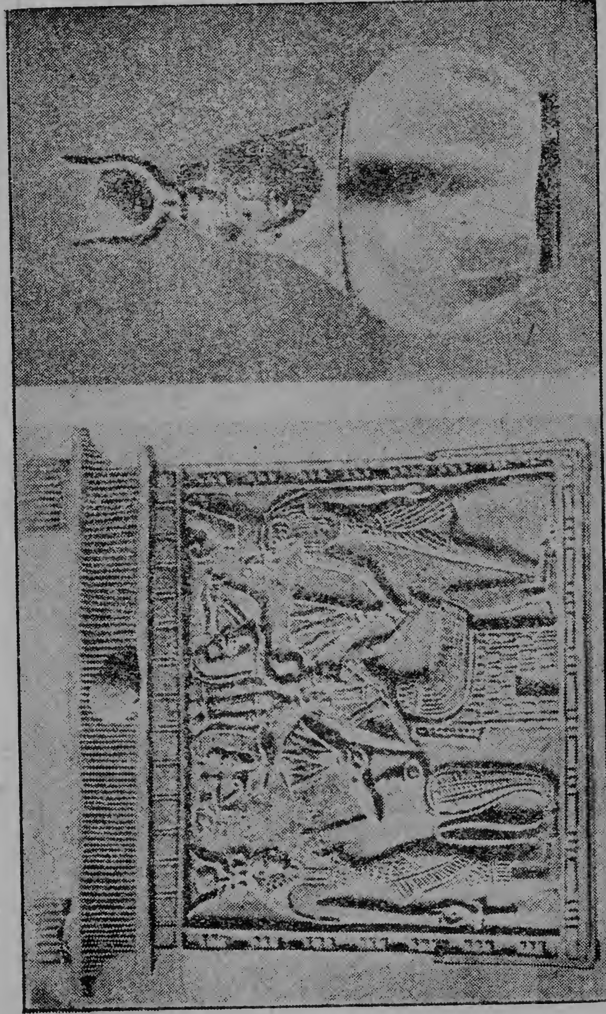


لوحات طينية من أور.

ا — قبل حرقها وتنظيفها.

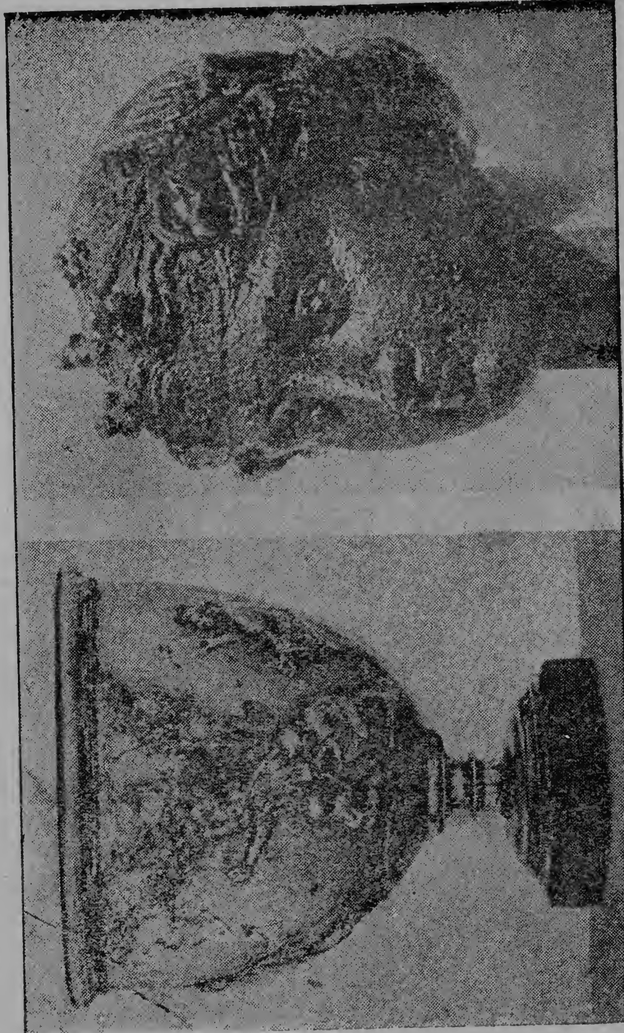
ب — بعد الحرق والتنظيف.

(لوحة رقم ٣١)



من قبور الأهرام فى «ميروى». آثار توضح تأثير الفن المصرى القديم على فن ميروى. محفوظة بمتحف الفنون الجميلة فى بوسطن.

(لوحة رقم ٣٢)



من قبور الأهرام في دميروى . تحف مستوردة من أصل يونانى . محفوظة بمتحف الفنون الجميلة في بوسطن .

فهرس

مطابع دار سعد مصر بالقاهرة